الفصل الثالث

التجارة ودورها
في انتقال الإسلام إلى جنوب الصحراء

يحتوي هذا الفصل على:

- أولا : معاهدة البقط (معاهدة النوبة).
- ثانيـــا: التجارة الكارمية.
- ثالثـــا: العلاقات التجارية ومكانة تجار الشمال الأفريقي بممالك وشعوب جنوب الصحراء.
- رابعـــا: أهم المدن والمراكز التجارية على أطراف الصحراء وجنوبها.
- خامسا: دور التجار المسلمين في نشر الإسلام جنوب الصحراء.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

التجارة ودورها
في انتقال الإسلام إلى جنوب الصحراء

التجارة من الأنشطة التقليدية التي مارستها مختلف المجتمعات البشرية حتى البدائية منها منذ القدم، والتجارة سبقت التاجر، لأنه لم يكن ضرورياً في البداية أن يكرّس الناس جلّ نشاطهم لأجل إجراء المقايضة لأنهم اكتفوا ولحقبة طويلة من الزمن بمبادلة ما يملكون بوفرة، مقابل ما كانوا بحاجة إليه ودونما واسطة مهنية [1].

ثم قامت حركة التبادل التجاري بين مجتمعات العالم، فساعدت على ربطها برباط قوي فيما بينها هو رباط المصالح المتبادلة والمشتركة، كما أن ممارسة النشاط التجاري يتيح للمشتغلين به حرية الحركة والانتقال من مجتمع لآخر فالعملية التجارية عملت وبكل قوة على انصهار الكثير من المجتمعات البشرية في مجتمعات أخرى، ومثّلت ثقافاتها وعاداتها وتقاليدها [2].

ولقد كان للتجارة دور هام في ربط الصلات ما بين العرب في المشرق العربي وشمال أفريقيا، وشعوب بلاد السودان الغربي والأوسط، كما هو الحال مع غيرها من شعوب شرق القارة الأفريقية [3].

وقد برع العرب في التجارة قبل الإسلام بأمد بعيد حتى قيل إن كل عربي تاجر، وكانت بلاد اليمن ملتقى الرحلات البحرية والتجارية التي تأتي من الهند واندونيسيا والصين، حيث تلتقي بالرحلات البحرية وقوافل الجمال التي تسير بين اليمن وبين الشام وبلاد الشمال [4].

ويقرّ المؤرخون اليونان أن اليمن كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانئ اليمن

---

(1) محمد المشري: بلاد القرن الأفريقي، ص 205.

(2) المرجع نفسه، ص 205.

(3) مطير غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، ص 156.

(4) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 6/ 203.

وبين موانئ الهند والصين وسومطرة والصومال، بحيث كانت التجارة شبه احتكار في يدها، وكان تجار اليمن من الذكاء لدرجة أنّهم حافظوا على أسرار تجارتهم، فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض المؤرخين من اليونان والرومان أنّ جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن [1].

كذلك كان لموقع عمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، والذي تحدّه الصحراء من الغرب والمحيط من الجنوب والشرق إلى توجّه سكانها للملاحة والتجارة البحرية، وقد برع العمانيون بدرجة كبيرة في صناعة السفن وإتقان فنّ الملاحة الشراعية، فلعبوا دوراً بارزاً في تنمية التجارة في المحيط الهندي [2].

إن سكان الخليج العربي من البحرانيين والعمانيين استهوتهم منطقة شرق أفريقيا والجزر المقابلة لها بما فيها مدغشقر أكثر من شرقي آسيا، فمارسوا التجارة واستقر الكثير منهم بل صاهروا السكان المحليين، فالتقوا بسكان جنوب جزيرة العرب، وبدت الآثار العربية واضحة لدرجة أدّت إلى اعتبار بعض الباحثين يجعل الشريط الساحلي من شرق أفريقيا وافداً من الشرق العربي، كما تبع تطور التجارة العربية ظهور الاستيطان الساحلي [3].

واشتهر نوع من السفن ذات شراع واحد عرف باسم الداوات، كانت تقوم برحلات سنوية إلى شواطئ شرق أفريقيا حاملة مختلف السلع العربية مثل البلح وسمك القرش المجفّف والقهوة والسجاد، وكانت هذه السفن تقوم برحلتين منتظمتين في السنة: الأولى في فصل الخريف (ديسمبر) عندما تدفعها الرياح الموسمية الشمالية الشرقية في اتجاه جنوبي غربي، وبعد شهور قلائل في فصل الربيع (مارس) تبدأ هذه السفن رحلة العودة إلى مواطنها في شبه الجزيرة العربية، تدفعها رياح موسمية جنوبية غربية [4].

(1) إبراهيم جوب: الفولانيون ودورهم في نشر الإسلام بغرب أفريقيا، ص 29.

(2) محمد المشري: مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، ص 67.

(3) المرجع نفسه، ص 69 – 70.

(4) محمود الحويري: ساحل شرق أفريقية، ص 17 – 18.

وأنشأ التجار العرب طرقاً لقوافلهم بعيدة عن الشاطئ لكي يسهّلوا أمور تجارتهم، وبنو مخازن في داخل البلاد، وكانت هذه القوافل التي تأتي من الشمال الأفريقي ومصر وشبه الجزيرة العربية، في مواسم مختلفة، ما هي إلاّ وسيلة لنقل ما تحتاج إليه أفريقيا من هذه المناطق وتعود محملة بالبضائع الأفريقية الرائجة في أسواق المغرب والمشرق العربي [1].

لقد أغرى هؤلاء التجار والملاحين ما وجدوه من سلع تجارية هامة كالتوابل والعاج والرقيق، وذلك لما تحقّقه من مكاسب كبيرة بالإضافة إلى رواج تجارة العرب، إن العرب الذين استقرّوا في الشرق الأفريقي يغلب عليهم الطابع التجاري ولم تكن لديهم فكرة استعمارية، أي استغلال الأرض ثم الانتشار فيها للداخل، وكان الغرض الأساسي من الاستقرار هو نقل الحاصلات الداخلية إلى الموانئ الساحلية للاتجار فيها، ولوحظ عدم اهتمام العرب بامتلاك الأرض إلاّ بالقدر الضروري لحماية مراكز الاستقرار، ولهذا كانت الممالك العربية على الساحل الأفريقي ضيّقة [2].

وبالإضافة إلى تجار العرب كان تجار البربر الذين قاموا بنشاط تجاري واسع ثم هناك تجار من بلاد التكرور والهوسا والفولاني، وكل هذه التجارات نَمَتْ في ظل الإسلام، فخدمها الإسلام وخدمته، حتى إن البعض يقول: «إن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير»[3].

ويعتقد ترمنجهام أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء أو على طول ساحل المحيط الأطلسي، وهي التي قامت بدور جليل الشأن في نشر الإسلام في بلاد السنغال وأعالي النيجر ومنطقة بحيرة تشاد هذا التأثير المغربي لم ينقطع أبداً طوال العهد بالإسلام، وكانت المجتمعات الإسلامية الجديدة التي تنشأ في شمال السودان تقوم بدورها في نشر الإسلام في هذه المناطق الواقعة إلى الجنوب عن طريق التجارة والطرق التجارية [4].

(1) الجمل، شوقي: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجول المصرية (القاهرة، بدون تاريخ) ص 39.

(2) محمد المشري، المرجع السابق، ص 68.

(3) أحمد شلبي: المرجع السابق، 6/ 204.

(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 373.

إن طائفة التجار تعدّ من أهم الطوائف التي نشرت الإسلام في غرب أفريقيا، فقد كانت القوافل التجارية تنقل الأسلحة والملابس من شمال أفريقيا إلى غربها ويتم بيع البضائع في مناطق غانا وغينيا ومالي وتكرور وسنَغي وكانو وبرنو ثم تعود القوافل محملة بريش النعام والعاج والتوابل والحرير والذهب والعبيد [1].

وكانت هذه الرحلات التجارية تستغرق شهوراً طويلة وربما سنوات لا تستطيع العودة من هذه المناطق الداخلية إلى مناطقها في موسم الأمطار فكان التجار ينتظرون الشهور يتاجرون ويحتكّون بالأهالي [2]، وكانت القافلة تتكوّن من عدد كبير من التجار والعاملين من خمسين إلى مائة رجل يسافرون عبر الصحراء أو عبر وديان الأنهار يشترون ويبعون في مراكز الأسواق من كل بلد، وكانت القافلة تتسلّح بالأسلحة التي تحميها من المعتدين وللقافلة أدلّة، ودليل القافلة كربّان السفينة، وقامت الموانئ والمدن على امتداد حافة الصحراء الكبرى من الجانب الشمالي والجنوبي، وفي هذه الموانئ الصحراوية تستطيع القوافل أن تجد الأمن والراحة بعد رحلة الصحراء، وتستطيع أن توفّر الدّواب والمرافقين، وتتبادل السلع والأخبار[3].

وعندما يحلّ التجار بالبلاد كانوا يختلطون بسكانها ويتزوّجون منهم بل وأنشأوا قرى جديدة في طريقهم وكوّنوا لأنفسهم جاليات إسلامية تقيم إقامة دائمة بالبلاد التي ينزلون بها كما أقاموا مراكز تجارية ومرافئ للمراكب والسفن، وشيّدوا المساجد، ولا يزال بعضها باقياً إلى الآن، وكانوا يفتحون المدارس القرآنية في هذه الأماكن، وكان سكان المناطق التي يحلون بها يقتدون بهؤلاء التجار في تصرّفاتهم ومعاملاتهم وسلوكهم اليومي في الحياة [4] .

كما أن بعض التجار جمع بين التجارة والتعليم، فإذا ما استقر بهم المقام أنشأوا مدارس لتعليم القرآن أو أنشأوا مسجداً، وقاموا في نفس الوقت بمزاولة النشاط التعليمي والاقتصادي، إن حرفة التجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة مباشرة بالمجتمع، فاحتكاكهم المباشر بالسكان يجعلهم يؤثّرون فيهم، وغالباً ما ينتهي هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء

(1) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 487.

(2) رجب عبدالحليم: المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء، ص 11.

(3) أحمد، محمد عبدالقادر: المسلمون في غينيا (القاهرة، 1406هـ/ 1986م) ط1، ص 26.

(4) علي الشطشاط، المرجع السابق، ص 487.

السكان في الإسلام، بالإضافة إلى ذلك فإن موقف الإسلام من الرق وتيسير المواصلات ساعد على ترويج التجارة، ومكّن التجار المسلمين من أن يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل [1].

لقد ازدهرت العلاقات الإسلامية الأفريقية خاصة في المجال الاقتصادي حيث أدى التجار المسلمون من العرب والبربر في بلاد المغرب خاصة، دوراً مهمّاً بتمتين الصلات التجارية بين الممالك الأفريقية القائمة في غرب أفريقيا ووسطها، وبين مناطق البحر الأبيض المتوسط والبلدان الأوروبية، وبنفس الدور أيضاً قام التجار المسلمون في تمتين الصلات بين موانئ ساحل شرق أفريقيا وبلاد الصين، فضلاً عن المناصب الإدارية العليا التي شغلها هؤلاء التجار في القارة لإدارة تلك الممالك وما تمتعوا به من امتيازات وضمانات كثيرة وعديدة [2].

إن الإسلام لم يمنع مَن اعتنقه من تجار العرب عن مزاولة حرفهم الأولى، فكانت قوافلهم التجارية تسير إلى حيث كانت تسير من قبل فقد أجمعت المصادر الإسلامية على أن عبدالرحمن بن عوف كان يدير المال ويثمره ويحرص عليه كأحسن ما يكون التدبير والحرص، ومضى طلحة بن عبيدالله في تجارته بعد إسلامه لم يصرفه عنها إلا ما كان من شهوده الغزو مع النبي (ﷺ)، وكان عفّان بن أمية صاحب تجارة وترك لإبنه عثمان (رضي الله عنه) ثراءً فاحشاً، وذهب عثمان (رضي الله عنه) مذهب أبيه بل مذهب قومه جميعاً في التجارة فأفاد منها مالاً كثيراً [3].

وتقدّمت الحضارة وازدهرت في الدولة الإسلامية تحت حكم الدولتين الأموية والعباسية، اللتين ألحتا في طلب مختلف الأشياء التي تنقصهم والتي تتوافر فيما يحيط بهم من بلاد منها أفريقيا، فنشطت الحركة التجارية ونشطت المراكز التجارية وازدحمت بالعرب النازلين فيها والذين توغّلوا في الداخل في طلب مواد التجارة، فأخذ عدد المسلمين يزداد وكلّهم ذو ميسرة وشجّع ذلك عدداً آخر على اللّحاق بهم طلباً للثروة، وبحثاً عن المال وإذا ما ضعفت الدولة الإسلامية وانقسمت إلى عدد من الدويلات التي تحكمها بيوت مالكة، نشطت الحركة التجارية نشاطاً قوياً لتسدّ مطالب هذه البيوت المالكة، وكلّهم أسرف في

(1) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 55، 57.

(2) ظاهر محمد: التواصل العربي الأفريقي، ص 37 – 38.

(3) رياض، زاهر: الإسلام في إثيوبيا، دار المعرفة (القاهرة، 1384هـ/ 1964م) ط1، ص 99 – 100.

الترف والنعيم، واشتد طلب الرقيق ومواد التجارة المختلفة، فكل هذه الأسباب المختلفة كانت عاملاً من عوامل نشاط التجارة ومن ثم انتشار الإسلام في هذه المناطق، وظهور الولايات والممالك الإسلامية [1].

وقبل أن أتكلم عن أهم الموانئ والمدن التجارية جنوب الصحراء وعن دور التجار في نشر الإسلام وترسيخ العقيدة الإسلامية في هذه المنطقة كان لزاماً الحديث أولاً عن معاهدة البقط أو معاهدة النوبة كما يسميها البعض، والتي عقدها المسلمون مع النوبة وأثرها في فتح المجال أمام التجار المسلمين للتوغل في النوبة ثم إلى دواخل القارة، وكذلك دور التجارة الكارمية في تنشيط حركة التجارة بين المسلمين والأفارقة ومكانة تجار شمال أفريقيا في دول وممالك جنوب الصحراء ودورهم في ربط دول الساحل بجنوب الصحراء.

أولاً: معاهدة البقط (معاهدة النوبة):

النوبة هي المنطقة الممتدة على شاطئ النيل جنوبي أسوان حتى دنقلة بالسودان وقد وصفها العمري: «النوبة تلي مصر في نهاية جنوبها على ضفّتي النيل الجاري إلى مصر، وقاعدتها دنقلة ومدنها أشبه بالقرى والضياع من المدن، قليلة الخير والخِصب يابسة الهواء»[2].

وترجع علاقة المسلمين بالنوبة عندما افتتح عمرو بن العاص مصر، فأحسّ النوبيون المسيحيون – وهم سكان وادي النيل بجنوب مصر – أن من واجبهم محاربة هؤلاء المسلمين الذين غزوا مصر بدافع من النخوة الدينية التي دفعتهم لذلك [3]. فكثرت غاراتهم على مصر، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مرّات عديدة يستأذنه بأن يسمح له بغزوهم، وفي آخر الأمر سمح له الخليفة بأن يشن عليهم بعض الغزوات، فخرجت على شكل صوائف وشوات حتى تؤدب هؤلاء النوبيين، وتوقف هجماتهم وغاراتهم على مصر [4].

(1) زاهر رياض، المرجع السابق، ص 101 – 102.

(2) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 4/ 99.

(3) المسعودي، مروج الذهب، 2/ 21.

(4) حسن، يوسف فضل: الإسلام والعروبة في السودان، محاضرات الموسم الثقافي الأول (1979–1980م) إعداد: محمد عبد السلام الجفائري، مركز جهاد الليبيين (طرابلس، 1410هـ/ 1989م) ط1، ص 81.

فخرجت أول حملة سنة 20–21هـ/ 642م بقيادة عقبة بن نافع الفهري، والتقى عقبة بجيش النوبة في معركة ضارية أبدى فيها النوبيون مهارة فائقة في رمي النبل، وعنف في المقاومة، وأظهروا من البراعة في المرواغة والمهارة في إطلاق السهام وإصابة الهدف، وكانت أهدافهم عيون المقاتلين وحدقاتهم يصيبونها في دقة ومهارة، فلا يكادون يخطئون ويصفهم المسعودي بقوله: «فغزاهم المسلمون – أي النوبة – فوجدوهم يرمون الحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم حتى صُرف عن مصر»[1].

ويذكر البلاذري في فتوح البلدان عن شيخ شهد ملاقاة النوبة فيقول: «شَهِدت النوبة مرّتين في ولاية عمرو بن العاص فلم أر قوماً أحدّ في حرب منهم، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم، أين تحب أن أضع سهمي منك ؟ فربما عَبث الفتى منّا فقال في مكان كذا، فلا يخطئه»[2].

ولم تكن هذه الحملة الإسلامية الأولى تريد زحفاً جادّاً نحو البلاد النوبية، فعمرو بن العاص لم يكن يطمع في أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية، أو تعقّب بعض الفارّين من الجنوب أو القواد البيزنطيين، ولعلّها كانت حملة استكشافية تريد أن تستطلع الأحوال في أقصى جنوب مصر[3].

وما أن غادر عمرو بن العاص مصر وخلفه عبدالله بن سعد بن أبي سرح في حكمها، حتى نقض النوبيون العهد بالأمان الذي أعطاه لهم عمرو بن العاص، فما كان من عبدالله بن أبي السرح إلا أن قام بغزو مملكة مقرة عام 31هـ/ 652م، حيث عاود العرب الكرة ثانية على بلاد النوبة، ويبدو أن المسلمين استفادوا من سلبيات الحملة السابقة، ومن الإخفاق الذي صادفته في عهد عمرو بن العاص، فأعدوا حملتهم أتمّ إعداد[4].

فأوغلت حملة ابن أبي سرح في بلاد النوبة جنوباً، ومضت في زحفها حتى وصلت إلى مدينة دنقلة وحصلت معركة حامية بين الطرفين، استبسل فيها النوبيون، ولكنّهم مالوا إلى

(1) المسعودي: المصدر السابق، 2/ 21.

(2) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة العربية (القاهرة، 1377هت/ 1957م) ص 217.

(3) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 282.

(4) عبدالفتاح الغنيمي: الإسلام والعروبة في السودان، ص 43.

الصلح عندما ضرب المسلمون قلاعهم وكنيستهم بالمجانيق، فأدخل هذا الضرب شيئاً من الرعب في نفوسهم، مما اضطر ملكهم (قليديوت) إلى طلب الصلح، فتوقّف الزحف الإسلامي إلى هذا الحد، واقتنع المسلمون بالمصالحة لأنّهم أحسّوا بأنّهم بعيدون عن مركز إمداداتهم فرغبوا في الصلح أيضاً [1].

ثم توصّلوا إلى اتفاقية تختلف عن نوع الاتفاقيات التي عقدت بين المسلمين وغيرهم في ذلك الوقت، وعرفت هذه الاتفاقية في التاريخ (معاهدة البقط)[2] وكلمة بقط لاتينية تعني مجموع المدفوعات والالتزامات من طرف إلى آخر، أما نصّها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

عهد من الأمير عبدالله سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حدّ أرض أسوان إلى حد أرض علوة، إنّ عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين، ممّن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي (ﷺ) أن لا نُحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه.

وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإن عليكم ردّ كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردّوه إلى ارض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه، ولا تتعرّضوا لمسلم قَصَدَه وحاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليّاً وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته.

وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحُلُم تدفعون ذلك إلى والي أسوان.

---

(1) يوسف حسن، المرجع السابق، ص 82.

(2) جمال قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص 142.

فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرّضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستّين رأساً فقد برئتْ منكم هذه الهدنة والأمان ونحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمّة رسوله محمد (ﷺ) ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح وذمّة الحواريين وذمّة من تعظّمونه من أهل دينكم وملّتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبه عمر بن شُرَحْبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين»[1].

لقد قضت هذه المعاهدة بأن يدفع ملك النوبة إلى بيت المال في مصر 360 رأساً من الرقيق كل عام، يدفع للوالي بمصر أربعين رأساً، وحاكم كورة أسوان الذي يتولّى تسليم الرقيق عشرين رأساً، ومبعوث الوالي الذي يجيء إلى أسوان خمسة، وللشهود العدول عن معاهدة البقط وعددهم أثنا عشر، رأساً واحداً، والموضع الذي يتسلّم فيه هذا البقط، ويحضره من ذكر وغيرهم من النوبة من ثقات الملك، يعرف (بالقصر) وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من جزيرة بلاق [2].

كما يتعهّد النوبيون بحفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلة ولا يهدموه، وفي مقابل ذلك يقوم المسلمون بإمداد النوبة بألف إردبّ من الغلال ويهادى السفراء بثلاثمائة إردبّ، كما يرسل المسلمون حبوباً أخرى كالعدس إلى جانب الأقمشة [3].

وتعتبر هذه المعاهدة عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم اعتداء يلتزم بها الطرفان وتقوم على المنافع المشتركة والتجارة بين المسلمين والنوبيين [4].

---

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 2/ 191، والمسعودي: مروج الذهب، 2/ 21، المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (القاهرة، بدون تاريخ) 1/ 200، والبلاذري: فتوح البلدان، ص 237 – 238، ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله، المسالك والممالك (ليدن، 1841م) ص 92، أبادي، محمد حميد الله الحيدر: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، بدون تاريخ) ص 296 – 297.

(2) المسعودي: المصدر السابق، 2/ 21.

(3) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 92.

(4) عبدالفتاح الغنيمي: الإسلام والعروبة، ص 44.

وكان النوبيون أكثر رغبة من المسلمين في الاتفاق لأن الكنيسة الآن في قبضة العرب، وكذلك مسارب التجارة ومسالكها، ومن ثم تبلورت هذه الرغبات المتبادلة في معاهدة البقط الشهيرة، وأصبحت بلاد النوبة من وجهة نظر الدولة الإسلامية في مصر سوقاً كبيراً أو منطقة نفوذ إسلامي كما عملت ممالك النوبة على تنفيذ هذه الاتفاقية ومدّ مصر بما تحتاجه [1].

لقد كانت هذه المعاهدة معاهدة مصالح مشتركة وتأمين النواحي الاقتصادية والتجارية، وتشجيع التبادل التجاري وتنظيم طبيعي للعلاقات وإقرار للسلام على الحدود المشتركة، وبمثابة فتح الباب أمام الهجرات الإسلامية ومنفذاً لأفريقيا جنوب الصحراء، ودول وممالك شرق ووسط أفريقيا لتنفذ في هدوء وطمأنينة، وكانت هذه المعاهدة استهلالاً لانتشار الإسلام في بلاد النوبة انتشارا سلمياً في فترة استمرّت حتى بداية العصر المملوكي في مصر [2].

وظلّت اتفاقية البقط تمثّل الركن الأساسي في التعامل بين المسلمين والنوبة لمدّة لا تقل عن ستة قرون وقد كان من فوائدها أنّها مهدّت للمسلمين دخول بلاد النوبة دون أن يصيبهم مكروه، كما سمحت لهم أن يزاولوا الشعائر الدينيّة بحرّية [3].

وعن طريق هذا التبادل التجاري الذي نظّمته معاهدة البقط والأصول والقواعد التي وضعتها، زاد التغلغل السلمي للإسلام، فقد اعترفت المعاهدة بحرية المرور التجاري بين القطرين «.. وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم» ومعنى هذا أن تجار المسلمين كان باستطاعتهم أن ينفذوا إلى بلاد النوبة وأن يقيموا فيها متاجرين غير مستقرّين، وأن تؤمن أموالهم وأنفسهم [4].

فأصبح هؤلاء التجار يخالطون أهل البلاد ويتحدّثون إليهم، وكان تجار المسلمين عادة من خير الدعاة إلى الإسلام وكانت أعداد التجار تتزايد ويزيد نشاطهم التجاري والديني، كلّما

(1) حسن محمود، المرجع السابق، ص 283، 285.

(2) المرجع نفسه، ص 284.

(3) يوسف حسن، المرجع السابق، ص 82.

(4) حسن محمود، المرجع السابق، ص 286 – 287.

نمت العلاقات بين البلدين، والتجار النوبيون بدورهم كانوا يتحدّثون عن أحوال البلاد الإسلامية الدينية والثقافية عند رجوعهم لبلادهم ويتأثّرون بما يشاهدون من معالم الحضارة [1].

إن هذه المعاهدة فتحت الباب أمام المؤثّرات الإسلامية لتنفذ إلى البلاد في هدوء وسلام، فقد نفذ الإسلام في أقل من عشر سنوات منذ الحملة الأولى في عام 21هـ/ 641م، ثم إلى معاهدة البقط عام 31هـ/ 652م، بدليل بناء المسلمين لمسجد لهم في عاصمة شمال السودان (دنقلة) وأتاحت للمسلمين الاتصال بالنوبة ثم المرور والانتقال جنوباً، مما أتاح الفرصة أمام المسلمين للانطلاق جنوباً حتى مملكة علوة، وما يقترب من مدينة الخرطوم (حالياً) حيث العاصمة (سوبا) فنشروا هناك اللغة العربية والدين الإسلامي [2].

واستمرّت العلاقات بين المسلمين والنوبة إلى أن قدم أحد المطالبين بالعرش واسمه شكنّده إلى السلطان المملوكي بيبرس الذي انتهز الفرصة فجرّد جيشاً سنة (675هـ/ 1276م) بقيادة آقسنقر الفارقاني الأستادار، وأيبك الأقرم، فأوغل الجيش في بلاد النوبة والتقى الجيش النوبي فدارت الدائرة على النوبيين وانتهت المعركة بهزيمتهم وفرارهم، وأوغل الجيش المملوكي في البلاد حتى وصل إلى دنقلة واستطاع هزيمة جيش الملك داود الذي فرّ من المعركة، وعيّن شكنّده ملكاً للنوبة [3].

وتعتبر هذه الحملة فتحاً للنوبة، ولم يكد ينتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حتى كان النوبيون بين أسوان ودنقله بالسودان قد اعتنقوا الإسلام، باستثناء أقلّية نوبية ظلّت على المسيحية حتى أواخر القرن الخامس عشر، وفي هذا القرن تكوّنت مجموعات نوبية مستعربة وهم الكنوز والسكوت والمحس والأناقلة [4].

(1) حسن محمود، المرجع السابق ، ص 287.

(2) عبد الفتاح الغنيمي: الإسلام والعروبة، ص 46 – 53.

(3) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 20.

(4) المرجع نفسه، ص 20.

ثانياً: التجارة الكارمية:

الكارمية ويقال الكانمية بالنون نسبة إلى الكانم: وهم فرقة من السودان، ذلك أن طائفة منهم كانوا مقيمين بمصر، شأنهم التجارة في البهار من الفلفل والقرنفل، ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم، ويَفْتَرض البعض أن الاسم أخذ من متاجرهم نفسها، إذ وجد أن كلمة Kuaraima هي لفظة أمهرية تفيد معنى الحبهان، وهو تابل من التوابل اشتغلوا بالإتجار فيه، ثم حرّفت هذه الكلمة وأصبحت كارم وأطلقت على هؤلاء التّجار [1].

وهي فئة من المسلمين نشأت بمدينة قوص بمصر من خليط من مهاجري أهل التكرور بغرب أفريقيا وبعض الهنود والعرب منذ القرن الرابع الهجري، وأصبحت قوص المركز الرئيسي لتجارة الهند الشرقية وامتدّت منها شبكة طرق قوافل ومواصلات لتقطع أفريقيا غرباً إلى غرب أفريقيا، كما امتدّت إلى القاهرة ومنها إلى سواحل أفريقيا الشمالية إلى أوروبا [2].

واتخذت لنفسها اسم الكارمية أو الكانمية، وكانوا على قدر كبير من الورع والتقوى، فجعلوا من أنفسهم دعاة إلى الإسلام، إلى جانب اشتغالهم بالتجارة، فقد عملت هذه الفئة بتجارة التوابل [3]، والبخور والصمغ والعاج وغيرها من السلع الثمينة من منتجات أفريقيا وآسيا وأصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل [4].

وقد زاد نشاط هؤلاء التجار في العهد الفاطمي خاصة في عهد الخليفة المستنصر، وذلك بسبب توقّف اليهود عن مزاولة هذه التجارة تماماً، فانفرد تجار الكارم المسلمون بها، واهتمام الدولة الفاطمية بهذه التجارة لدعم اقتصادها الداخلي [5]، وقامت الدولة الفاطمية بحمايتهم وكان لها أسطول في عيذاب لحماية التجارة الكارمية فيما بين عيذاب وسواكن من قراصنة

(1) عثمان، شوقي عبدالقوى: التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، 1421هـ/ 2000م) ص 45.

(2) مجاهد، حورية توفيق: الإسلام في أفريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1423هـ/ 2002م) ص 125.

(3) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، مطبعة يوسف (القاهرة، 1385هـ/ 1965م) ص 50.

(4) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 45.

(5) حورية مجاهد، المرجع السابق، ص 215.

كانوا بجزائر البحر الأحمر يعترضون المراكب، وكان عديد هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت ثلاثةً، وكان والي قوص هو المتولّي أمر هذا الأسطول، وكان يحمل إلى هذا الأسطول كل ما يتطلّبه ويكفيه من السلع [1].

وسارت الدولة الأيّوبية على نهج الدولة الفاطمية في حماية تجارة البحر الأحمر والاهتمام بها وتشجيع الكارمية على التوسّع في تجارتهم، وكان تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين، قد وقف فندقاً لسكنى التجار الكارمية بمصر [2].

وعمل سلاطين المماليك على حماية الكارمية والمحافظة على مكانتهم، حتى أصبحوا في مركز اقتصادي واجتماعي عظيم [3]، وقام سلاطين المماليك بحل كل مشاكل الكارمية دونما إبطاء أو تأخير، وكان كثير من مشاكلهم تُعرض على السلطان، ومن ذلك مثلاً ما أورده المقريزي من أن تجار الكارم تقدّموا في صاحب سواكن وصاحب جزيرة دهلك بأنّهما يتعرّضان لأموال من يموت من التّجار في بلادهم، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس رسولاً ينكر عليهما ذلك سنة 662هـ/ 1263م [4].

وقد كان للسياسات الإسلامية التي اتبعتها الدولة الإسلامية أثر كبير في زيادة ثروة الكارمية فلم يكن يسمح للسفن الهندية والصينيّة باجتياز عدن إلى الشمال، لأن عملية نقل البضائع الصادرة إلى الشمال كانت موكلة إلى سفن إسلامية، كما لم يسمح سلاطين المماليك لأي تاجر أوربّي بأن يتوغّل جنوباً بتجارته أو بمفرده إلى بلاد النوبة، خوفاً من تآمر هؤلاء التجار مع الحبشة ضد المسلمين، وكان هذا هو السبب الظاهر، أما السبب الحقيقي فهو حرص المماليك على عدم معرفة الأجانب بالطرق التجارية المارّة في البلاد [5].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 3/ 524.

(2) ابن دقماق، محمد بن أيدمر العلائي: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، طبعة بولاق (القاهرة، 1310هـ/ 1893م) 4/ 30.

(3) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 45 – 46.

(4) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة، 1387هـ/ 1967م) 1/ 506.

(5) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 46 – 47.

ونتيجة لهذا سيطر الكارمية على تجارة البحر الأحمر ووصلوا بتجارتهم إلى السودان الغربي والأوسط والنوبة، كما وصلوا بمتاجرهم إلى بلاد الحبشة ودول الطراز الإسلامي [1] والمشيخات الإسلامية على ساحل البحر الأحمر، ولعلّ أعظم ما أقبلت عليه تلك الجهات الأفريقية من متاجر مصر أقمشتها، وكان ملوك المسلمين بالحبشة يؤدّون إلى الحطي (ملك الحبشة) ضريبة سنوية من الأقمشة الحريرية والقطنية التي تأتيهم من مصر، كذلك أصبحت موانئ البحر الأحمر مخازن لتجمّع بضائع الكارمية قبل نقلها إلى مصر [2].

وتحت ستار التجارة دخل الكارميون بلاد الحبشة، ولقوا ترحيباً من أمرائها وحكامها، بسبب نشاطهم التجاري الكبير، واشتغالهم بتجارة الرقيق بمساعدة ملوك الحبشة أنفسهم، وساعدهم ذلك على نشر الدعوة الإسلامية طول إقامتهم في البلاد، واختلاطهم بالأهالي ومعرفتهم بعاداتهم وتقاليدهم حتى أسلم على أيديهم كثير من أهل الحبشة [3]، وكثير من قبائل الجلا والصومال [4].

وقد كوّن التّجار الكارمية نقابة لهم في قوص هيمنت على تجارة التوابل وكان رئيسها يطلق عليه رئيس الكارمية. وهو أكثر الكارمية مالاً ونفوذاً وجاهاً، ويخضع له سائر التجار حتى أكابرهم وله المكانة الرفيعة في مصر، وعند سلاطينها فضلاً عن مكانته المرموقة وكلمته المسموعة في مختلف الأسواق التجارية [5].

ونتيجة للمنافع التي جنتها مصر من التجارة الكارمية فقد أولاهم سلاطين المماليك اهتماماً خاصاً وأنشؤا وظيفة هامة لرعاية مصالحهم، هي وظيفة نظر البهار والكارمي [6].

---

(1) الطراز الإسلامي: هي البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي البحر الأحمر وما يتصل به من بحر الهند، ويعبّر عنها بالطراز الإسلامي لأنّها على جانب البحر كالطراز له وهي سبع ممالك بأيدي سبعة ملوك، العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 4/ 62.

(2) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 47.

(3) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 50.

(4) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 489.

(5) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 48.

(6) القلقشندي، المصدر السابق، 4/ 32.

ولم يكن دور التجار الكارمية في الحياة الثقافية أقل من دورهم في الحياة الاقتصادية، بل تعدّوها إلى ما اشتهروا به من أعمال الخير والصلاح [1]، حيث اشتغلوا بتدريس الفقه والإفتاء والتفسير، وهكذا رغم عدم اشتغالهم بالدعوة إلا أنّهم نشروا الإسلام في الدول التي دخلوها وتاجروا فيها، ومن ضمن آثارهم بالنّسبة لانتشار الإسلام هو تحريرهم للرقيق المصاحب لهم في نهاية رحلة التجارة وإعادتهم لأوطانهم مما جعلهم نقلة للإسلام [2].

ومن جهود الكارمية في سبيل العلم والثقافة الإسلامية ما قام به عبد العزيز بن منصور الكولمي أحد تجار الكارمية، حيث كان متسعاً في نفقاته وكان يكثر البر والمعروف، ويخرج زكاة ماله وله عدّة أوقاف على مكاتب سبيل البر[3]، كذلك عبد اللطيف بن أحمد، أحد رؤساء الكارمية كان يعلّم الحديث ويفرّق على كل من سمع عليه ديناراً كما بنى وأوصى محمد بن مسلم بتعمير مدرسة بإسمه ورصد لذلك ستة عشر ألف دينار [4].

لقد ساعد هؤلاء التجار الكارمية في ربط العلاقات التجارية بين مناطق جنوب الصحراء وخاصة بلاد البرنو والكانم وبلاد الهوسا بشكل خاص مع بلدان شمال أفريقيا خاصة ليبيا ومصر وأسهموا في نشر الإسلام بين الأفارقة وقاموا ببناء العديد من المنشآت الدينية [5].

ثالثاً: العلاقات التجارية بين الشمال الأفريقي و ممالك وشعوب جنوب الصحراء، و آثارها:

إن أغلب المصادر التاريخية تشير إلى وجود علاقات اقتصادية بين مناطق الشمال الأفريقي، ومناطق غربيّ أفريقيا ووسطها، ومن المؤكد أن تلك العلاقات لم تزدهر إلاّ بعد الفتح الإسلامي لمصر وشمال أفريقيا، وتأتي أهمية هذه العلاقات التجارية إذا عرفنا أن الإسلام قد وجد طريقه إلى وسط القارة وغربها على أيدي أولئك التجار في أغلب الأحيان [6].

(1) ابن تغرى بردي، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (القاهرة، 1348هـ/ 1929م) 1/ 185.

(2) حورية مجاهد، المرجع السابق، ص 215 – 216.

(3) المقريزي: السلوك، 2/ 132 – 133.

(4) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 49.

(5) على الطيف: المراكز التجارية الليبية، ص 123.

(6) أحمد الفيتوري: الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان، ص 245.

ولقد كان لتطوير نظم التجارة وطرقها في عهد الفتح الإسلامي للشمال الأفريقي أثره في تيسير نشر الدعوة الإسلامية جنوب الصحراء، وكان من أبرز هذا التطوير ما قام به حفيد الفاتح عقبة بن نافع الفهري، وهو عبدالرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، أواخر الحكم الأموي، من حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات أفريقيا وبين مدينة أودغست ممّا مهد الطريق أمام القوافل التجارية للتوغل في غرب أفريقيا عبر الصحراء، بعد أن كانت مقصورة على الساحل [1].

كذلك كان لتمازج العلاقات الحضارية بين سكان سواحل الشمال الأفريقي مع حضارات حوض البحر المتوسط، فضلاً عن علاقاتها بأوروبا، كانت دافعاً مهماً لتوجّه التجارة داخل أفريقيا وسلوكها لطرق القوافل الصحراوية التي تربط مدن الشمال الأفريقي بمدن الصحراء الداخلية المشهورة خاصة بتجارة الملح والذهب [2].

وقام العرب والبربر بدور كبير في هذا النشاط التجاري وأصبحت مدن الشمال الأفريقي مراكز تجارية، بجانب كونها مراكز للعلم والثقافة، ووصلت إليها السلع الأفريقية، فاتحة تجار العرب والبربر واخترقوا الصحراء الكبرى، ووصلوا إلى بلدان أفريقيا جنوب الصحراء[3]، فرّحب ملوك السودان بهم نتيجة لأهمية بعض المواد التجارية لدولهم، فمثلاً الخيول كانت قد أثّرت تأثيراً بارزاً في العمليات العسكرية في بلاد السودان، وقد حرص ملوك السودان على اقتناء الخيول العربية الجيّدة لتعزيز قوى جيوشهم [4].

فاخترقت القوافل التجارية الصحراء إلى الدولة الساحلية غانة التي تبوّأت مكانة ذات شأن منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حتى النصف الأوّل من القرن الحادي عشر، وتبادلت مع أهلها التجارة، واتسمت تجارة تلك القوافل في ظل الإسلام بلون حضاري منظّم تنظيماً محكماً، وظهرت بتأثيرها المدن الكبيرة والأحياء النظيفة الراقية في أرض الزنوج، وقد أفردت مملكة غانه في عاصمتها منطقة خاصة بهم، حتى أدّت هذه الصلات

(1) حسن عبدالظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا، ص 96 – 97.

(2) ظاهر محمد: العلاقات العربية الليبية، ص 153.

(3) رجب عبد الحليم: المسلمون في أفريقيا جنوب الصحراء، ص 9.

(4) أحمد الفيتوري، المرجع السابق، ص 250.

التجارية إلى أن أعلن بعض الرؤساء في السودان الغربي إسلامهم ومنهم (وارجابي) حاكم التكرور على نهر السنغال [1].

إن الثراء والجاه اللذين تمتّعت بهما غانا يعودان إلى موقعها الجغرافي بين مناجم الذهب في الجنوب، وملاحات (تاغزا) في الشمال، مما جعل منها محطّة تجارية ذات أهمية كبرى لأفريقيا الغربية ودول الشمال الأفريقي، وسرعان ما وصلت أخبار تلك المملكة الفتيّة إلى الشرق العربي، فمنذ القرن الثاني/ الثامن الميلادي نجد الفزاري يصف غانه بأنّها: (أرض الذهب) حتى كان القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين وجدنا أخباراً مفصلة عن تلك الإمبراطورية في كتابات الجغرافيين والرحالة العرب تصفها بالغنى والثروة نتيجة لتجارة الذهب [2].

وكان من الطبيعي أن تجلب غانه إليها قوافل التجار من مدن شمالي أفريقيا منذ مرحلة مبكّرة، ويبدو أن أولئك التجار الذين توافدوا على غانه، كانوا من الكثرة بحيث إنهم استطاعوا تأسيس مدينة خاصة بهم جانب العاصمة (كومبي صالح) شيّدت بها أثني عشر مسجداً، وعجّت المدينة بالفقهاء والأئمة والعلماء، وقد تحدّث عنها البكري قائلاً: «غانه مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً، بها الأئمة والمؤذنون والفقهاء والعلماء، وتحيط بها الآبار العذبة منها يشربون، وعليها يزرعون الخضروات»[3].

وأسهمت تلك الجالية إسهاماً بارزاً في الحياة السياسية لإمبراطورية غانه بالإضافة إلى أثرها الاقتصادي يقول البكري: «... وبقرب مجلس الملك يوجد مسجد يصلّي فيه المسلمون الذين يفدون على الملك، وبالمدينة حرس خاص لا يسمح لأحد بدخولها إلاّ بإذن الملك... وقد عمل ملوك غانة على تولية المسلمين أرفع المناصب في الدولة، فقد كان منهم وزراء وأمراء جيوش، وحرّاس وأمناء صناديق ومترجمون للملك»[4].

(1) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 96.

(2) أحمد الفيتوري، المرجع السابق، ص 245.

(3) البكري: المسالك والممالك، 2/ 872.

(4) المصدر نفسه، 2/ 873.

لقد عرفت مدن غانه حركة تجارية نشيطة ساعد في تكوينها تجار من الشمال الأفريقي من سجلماسة ودرعة وغدامس فجلبوا إليها القمح والزبيب والتمر ووصل سعر قنطار القمح والزبيب والتمر، عندهم في أغلب الأوقات ستة مثاقيل، ويجلب منها العنبر لقربها من المحيط الأطلسي والذهب والأبريز الخالص، خيوطاً مفتولة وذهب غانا من أجود الذهب [1].

ويذكر السلاوي أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار، ثم يسيرون في قوافلهم إلى غانا، فكانوا يقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً، وفي شهر ونصف إيَّاباً، فيبيعون ما معهم من الأمتعة بالذهب [2].

وبحكم الموقع الجغرافي لليبيا قامت بانعاش التجارة بين المناطق الأفريقية باتجاه الشرق والغرب والوسط وجزر البحر الأبيض المتوسط، وعموماً مثّلت مراكز التجمع في الأراضي الليبية من موانئ وواحات الصحراء محطّات لتجمّع القوافل التجارية المتحركة بين مناطق المغرب العربي والبلاد الأفريقية لتبادل البضائع [3].

وبرز تجار ليبيّون في كل من (طرابلس وغدامس وأوجلة وفزان وجبل نفوسة) تمتعوا بعلاقات متينة مع مدن بلاد ما وراء الصحراء، واحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في تنبكت نتيجة للدور التجاري الذي قاموا به لاسيما وأن الجالية الغدامسية تمتّعت بنفوذ كبير فيها، حتى أصبح لها ركن خاص بهذه المدينة، وشغل أفرادها مناصب إدارية عديدة [4]، ومن التجار الذين ارتادوا أودغست من ليبيا (أبو رستم النفوس) من جبل نفوسة [5].

ونتيجة لأهمية تجار الشمال الأفريقي من العرب والبربر فقد تمتّعوا بالكثير من الضمانات والميزات، فإذا ما توفي أحد أفراد تلك الجالية فكل ممتلكاته تكون تحت الضمان حتى يرجع الإرث إلى أهله وإذا تعرّض أحد التجار إلى عسف حكام الأقاليم وجورهم، فإنّه يستطيع أن

(1) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 99.
(2) السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، 5/ 99.
(3) ظاهر محمد: أفريقيا ما وراء الصحراء، ص 78.
(4) ظاهر محمد: العلاقات العربية الليبية، ص 153 – 154.
(5) حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص 99.

يشتكي مباشرة إلى السلطان، وهذا ما جعل حكام الأقاليم يحاولون تقديم كل العون والمساعدة لأولئك التجار، ومن ذلك قصّة التاجر أبو حفص الذي اشتكى إلى الملك أمام عامة الناس من جور أحد حكامه، واستطاع ذلك التاجر أن يسترد أمواله، بل إن الملك قد عزل ذلك الحاكم في الحين [1].

وبالإضافة إلى تلك الامتيازات فهناك من التجار المغاربة من استطاع أن يعقد الصفقات التجارية في بلاط الملك نفسه، ومن ذلك ما قام به تاجر يدعى عبدالوسيع المصراتي من دخوله على السلطان الأسكاي محمد لشراء عدد من العبيد كانوا قد أحضروا من أحد الأقاليم، وحتى قبل أن يوضع أولئك العبيد في الأسواق [2].

ونتج عن احتكاك هؤلاء التجار واختلاطهم بأهالي تلك البلاد أن حدث تزاوج مع عديد من الأسر المحلّية في المنطقة [3]، ومن الأدلّة على المكانة العالية التي وصل إليها تجار الشمال الأفريقي الذين عاشوا في تلك المنطقة من وقوع تصاهر بينهم وبين حكّام وأهالي البلاد ومن ذلك قيام أحد الأمراء بتزويج اثنين من بناته لأخوين تاجرين [4].

ولكن عندما ضعفت الدولة الإسلامية، وانقسمت تمكّن البرتغاليون من احتلال مدينة سبتة في 14/ 8/ 1415م، ونجحوا كذلك في تحويل طرق التجارة باكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، ودورانهم حول أفريقيا، ونتيجة لهذه السيطرة الأوروبية انتقل تدريجيّاً جزء كبير من تجارة الصحراء عن المراكز المنتشرة على أطراف الصحراء. التي سوف نشير إليها – إلى مراكز التجارة الجديدة في المناطق الساحلية ومن جرّاء ذلك انخفض مستوى العلاقات التجارية عبر الصحراء بين الأفارقة والعرب [5].

(1) ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة، ص 688 – 690.

(2) أحمد الفيتوري، المرجع السابق، ص 251.

(3) مطير غيث، المرجع السابق، ص 157.

(4) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص 166.

(5) ظاهر جاسم: العلاقات العربية الليبية، ص 154 – 155.

رابعاً: أهم المدن والمراكز التجارية على أطراف الصحراء وجنوبها:

1- بربرة:

بربرة هو الاسم القديم الذي كانت تعرف به بلاد الصومال، وبربرة هي ميناء في مدخل باب المندب على الضفّة الغربية للمحيط الهندي المقابلة لساحل عدن، وهي من المدن التي شيّدتها الهجرات العربية على طول الساحل الأفريقي وتطوّرت بفعل حركة التجارة بين دول عالم المحيط الهندي، ويُعتقد أن تشييدها تَمّ على أيدي عرب من اليمن وحضرموت في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[1].

وقد أطلق العرب على الساحل المقابل لساحل عدن بلاد بربرة، وقالوا كذلك ميناء بربرة والخليج البربري، وبحر بربرة، وكذلك مدن وقرى بلاد بربرة فالمسعودي ذكر أن أرباب السفن من العثمانيين يعرفونه ببحر بربري وبلاد جفونى[2]، وأطلق عليها الدمشقي اسم جزيرة بربرا حيث يقول: «جزيرة بربرا معمورة بالسودان المسلمين ومذهبهم زيدية وشافعية»[3]. وهي بلاد فقيرة، حيث أدّى فقر ساحلهم إلى اعتماد أهلها في معيشتهم على أكل لحوم السلاحف البحرية، والتي تسمّى عندهم البسّة [4] فهي بلاد قشفة ولا يحمل من ساحلها شيء إلاّ ما وصف من الحيوانات مثل الذبل والنمر والحمر [5].

ونتيجة لذلك مارس أهل بربرة التجارة مع عالم المحيط الهندي فقد عرف ميناء بربرة كميناء مناسب لحركة الملاحة والرسو ويتوفّر فيه الأمان البحري المطلوب، مما أهله لأن يصبح منفذاً هاماً لتجارة العديد من السلع الأفريقية، كما كانت تقوم بها أسواق موسمية تجارية في فصل الشتاء، حيث يقصدها التجار من بلاد عديدة، كما كانت تأتي إلى مدينة بربرة العديد من القوافل من مختلف المدن الأخرى المحيطة بها تحمل مختلف أنواع السلع، حيث

(1) محمد المشري: المرجع السابق، ص 168.

(2) المسعودي: مروج الذهب، 1/ 17.

(3) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 162.

(4) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 1/ 48 – 49.

(5) المسعودي: المصدر السابق، 1/ 17.

obeikandl.com

كانت تصدّر من ميناء بربرة الماشية والجلود والبن والمر وريش النعام والعاج والصمغ العربي وغير ذلك [1].

2- مدينة زيلع:

وهي أيضاً أقامتها الهجرات العربية القادمة من اليمن، إلى الجزر المقابلة لها، حيث نشأت العديد من المدن الأخرى المطلّة على الضفّة الغربية للمحيط الهندي، ويبدوا أنّها قامت على أنقاض إمارة عربية أسّسها عرب ترجع أصولهم إلى القرشيين من الحجاز، كانوا قد وصلوا إليها عن طريق باب المندب، وبعد زمن من إقامتهم فيها هجروها إلى منطقة شوا الحبشية في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي [2].

وزيلع هي أشهر مدن وموانئ الساحل الشرقي لأفريقيا، فقد احتلّت موقعاً استراتيجيّاً مهمّاً عند مدخل باب المندب شمالي مدينة بربرة. وكان لهذا الموقع أهميّة خاصة في زيادة أهميّة المدينة كميناء، خصوصاً مع تصاعد حركة التبادل التجاري بين الداخل الأفريقي وعالم المحيط الهندي [3].

وقد ذكر زيلع العديد من المؤرخين والجغرافيين العرب منهم المسعودي حيث ذكر أن من مدن الحبشة على الساحل الزيلع حيث قال: «وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر وهي مدينة عظيمة، وهي دار مملكة النجاشي... ولهم ساحل فيه مدن كثيرة، وهو مقابل لبلاد اليمن، فمن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وباضع، وهذه المدن فيها خلق من المسلمين إلاّ أنهم في ذمة الحبشة»[4].

أما الإدريسي فقد ذكرها باسم زالع حيث يقول: «ومن مدن الحبشة زالع، وهي على ساحل البحر الملح المتّصل بالقلزم...وهي صغيرة القطر كثيرة الناس، والمسافرون إليها كثر، وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التي يتصرف بها في بلاد

(1) محمد المشري، المرجع السابق، ص 171.

(2) المرجع نفسه، ص 174.

(3) المرجع نفسه، ص 171.

(4) المسعودي، المصدر السابق، 2/ 17 – 18.

الحبشة، ويخرج منها الرقيق والفضّة، وشرب أهلها من الآبار ولباسهم الأزر ومقندرات القطن»[1].

وياقوت الحموي يذكر أن زيلع قرية على ساحل البحر الحبشي بها طوائف من السودان قال إنهم مسلمون [2].

وابن سعيد يقول: «إن زيلع من مدن الحبشة المشهورة. وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردّد على ساحل عدن وزبيد»[3].

أما أبوالفداء فيصفها: «وزيلع فرضة الحبشة نحو أرض اليمن وفيها مغاص.. ونقل عن بعض من رآها أن زيلع مدينة صغيرة نحو عيذاب في القدر، وهي على الساحل، ومنها شيوخ يحكمون بين أهلها، وعندهم ينزل التّجار ويضيّفونهم ويبتاعون لهم»[4].

ويصفها ابن بطوطة بأنها مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وهي أوّل بلاد البرابرة، ولها سوق عظيم [5].

إن أغلب المصادر التي ذكرت مدينة زيلع تصفها بأنّها كانت ميناء مهما في حركة التجارة، وأكّدت على أنّها كانت وصلة للتجارة بين بلاد بربرة وساحل عدن وزبيد والحجاز وعالم المحيط الهندي في عمومه، وهي تعدّ كذلك مدينة إسلامية عامرة بالناس، فأهلها مسلمون جميعاً، وتعتبر الزيلع محطّة رئيسية لسفن ومراكب البحر الأحمر التي تعمل في التجارة، حيث تتزوّد منها بالمؤن والبضائع، وكانت لا تخلو من المراكب والسفن في جميع فصول السنة، ولعبت دوراً متمّيزاً في تصريف السلع وربط وخدمة المواصلات البحرية عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر[6].

(1) الإدريسي، المصدر السابق، 1/ 43 – 44.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/ 173.

(3) ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت، 1390هـ/ 1970م) ط1، ص 99.

(4) أبو الفداء، عمادالدين إسماعيل الأيوبي: تقويم البلدان، منشورات مكتبة المثنى (بغداد، 1370هـ/ 1950م) ص 162.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 252.

(6) محمد المشري: بلاد القرن الأفريقي، ص 171، 174.

3- مدينة مقديشو:

تحتل مدينة مقديشو موقعاً استراتيجياً مهمّاً، فهي تطل على المحيط الهندي، وتمثّل نقطة اتصال عالمي بين شعوب عالم المحيط الهندي وأفريقيا الشرقية، وهي أشهر مدن بلاد الصومال والساحل الشرقي لأفريقيا وأعرقها، وقد ازدهرت كمركز تجاري إسلامي وكانت مقصد المهاجرين المسلمين من جنوب بلاد العرب كاليمن وحضرموت، ومن بلاد فارس أيضاً وبلغت أوج ازدهارها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد [1].

وفي القرون الأولى للهجرة لم يكن لمقديشو سلطان أو ملك، وإنما كان لكل طائفة أن تخضع لشيخها، وباتساع المدينة حدث ترابط بين السكّان العرب والصوماليين وتكوّن مجلس من الأشراف وأعيان القبائل الصومالية للنظر في أمور البلاد، واستمرّ هذا المجلس حتى انتخب فخر الدين حاكماً على البلاد ولقّب بلقب السلطان، واستمر سبعة عشر عاماً حتى توفيّ في عام 511هـ/ 1117م [2].

وقد وردت العديد من التفسيرات حول تفسير كلمة مقديشو فمنهم من قال أنّها مركّبة من كلمتين عربية وفارسية هما (مقعد، وشاه) فالكلمة الأولى عربية أصيلة، والثانية فارسية تعني ملكاً وهي إشارة إلى المكان الذي اتخذه الشاه (الحاكم الفارسي) مقرّاً لحكمه [3]، ولما كثر استعمالها حذفت العين من كلمة مقعد شاه ثم حرّفت الألف إلى الواو فصارت مقديشو [4].

أما الرأي الآخر فمؤداه أن الاسم صومالي، حيث تعني المكان الذي تتجمّع فيه الأغنام للبيع [5]، ومنهم من يقول أنه نسبة للمكان الذي اختاره الشيخ مقعداً لجلوسه أي (مقعد الشيخ) [6].

وقد زار ابن بطوطة مقديشو حوالي سنة 1331م، ووصفها فقال: «مدينة متناهية في

(1) عبد الرحمن النجار: الإسلام في الصومال، ص 64.
(2) المرجع نفسه، ص 64.
(3) محمد المشري، المرجع السابق، ص 127.
(4) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 65 نقلاً عن الشريف عيدروس: بغية الآمال في تاريخ الصومال، ص 32.
(5) محمد المشري، المرجع السابق، ص 127.
(6) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 72.

الكبر، وسلطان مقديشو كما ذكرنا إنما يقولون له الشيخ واسمه أبوبكر ابن الشيخ عمر، وهو في الأصل من البرابرة، وكلامه بالمقديشي ويعرف اللسان العربي»[1].

إن مقديشو كانت من أشهر مدن الساحل الشرقي لأفريقيا، وعرفتها جميع شعوب وأمم العالم التي مارست النشاط التجاري، فهي تمثّل مركزاً اقتصادياً كبيراً ومهمّاً على الساحل الأفريقي، وقد كانت التجارة تمثّل الركن الأساسي لاقتصاد المدينة، وقد ذكر ياقوت عدداً من صادرات مقديشو التي كانت تحمل إلى غيرها من البلدان مثل الصندل والأبنوس والعنبر والعاج[2]، ويذكر ابن بطوطة أن أهل مقديشو تجار أقوياء فعندما تصل مراكب التجار يأتي إليهم تجار مقديشو وكل واحد منهم يكون لديه نزيل منهم، ينزل ضيفاً عليه ويقوم بشراء بضاعته منه ويشتري له ما يحتاجه من بضائع أخرى، كذلك تقوم في مقديشو صناعة الثياب التي كانت تصدّر إلى مصر وغيرها وهي ثياب لا نظير لها في الإتقان[3].

4- مدينة مصوع:

تقع في الشمال الشرقي من الساحل الشرقي الأفريقي على البحر الأحمر وهي ميناء عامرة بها جملة من الأسواق ويقيم بها الكثير من التجار العرب والهنود، وتعد مصوّع من أقدم موانئ البحر الأحمر، ولعبت دوراً مهماً في تجارة المحيط الهندي، وكانت تجارتها تنحصر في الجلود والصمغ والسمن والعسل والشحم وغيرها، ومن مصنوعاتها الحلي والأسلحة وأنواع من المنسوجات، ولذا فقد كانت مركزاً عموميّاً لتجارة الهند واليمن وميناؤها الحصين يسع كثيراً من السفن، ولا يخلو ساحلها يوماً من السفن[4].

5- مدينة عيذاب:

عيذاب هي إحدى موانئ ومدن البحر الأحمر الشهيرة بفعل اعتمادها على حركة التبادل التجاري، فهي محطة رئيسيّة رابطة بين كل من بلاد الحجاز ومصر وبلاد السودان، وهي

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 253 – 254.

(2) ياقوت الحموي، المصدر السابق، 5/ 173.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 253.

(4) محمد المشري، بلاد القرن الأفريقي، ص 186 – 187.

بدأت كميناء لخدمة احتياجات النشاط التعديني في الصحراء الشرقية، ثم بلغت قمة ازدهارها عندما أصبحت محطّة للسفن القادمة من الهند وشرق أفريقيا وجزيرة العرب، وهي تقع في شط البحر أقرب نقطة عبور من مدينة جدّة وكبرى مرافئ الحجاز من العدوة الأفريقية [1].

وزادت أهمية عيذاب ابتداءً من عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي لتحوّل قوافل التجار والحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء إلى طريق النيل حتى قفط وادفو وأسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب نتيجة للحروب الصليبية [2]، وكانت تصل إليها مراكب الهند واليمن والحبشة حاملة بضائع تلك البلاد، وكانت عيذاب بما يجلب إليها من قوافل التجار والحجاج حتى أن أحمال البهار كانت تترك بها والقوافل هابطة وصاعدة لا يعترضها أحد من العربان أو غيرهم، وذلك لاستِتَباب الأمن بها وكان لأهلها فوائد لا تحصى من التجار والحجاج، حيث كانوا يحصلون على كل حمل يحملونه ضريبة مقرّرة، وكان بها وال من قبل مصر، ووال من قبل ملك البجة ليقتسما جبايتها مناصفة [3].

وكان هناك جملة من العوامل جعلت عيذاب من أهم المراكز التجارية منها أن السفن المتجهة إلى مصر كانت توفّر الكثير من الوقت إذا رست بعيذاب، كما أن موقع عيذاب الإستراتيجي جعل منها قاعدة لأساطيل مصر الإسلامية المناط بها حماية السفن التجارية، كما كان لجهود الفاطميين في تحويل طرق التجارة الشرقية من الخليج العربي إلى البحر الأحمر أن استشرفت عيذاب عصراً زاهراً ارتقى بها إلى مصاف المرافئ العالمية [4].

ونظراً لشهرة عيذاب، فإنها لفتت أنظار الصليبيين إليها فحاولوا توجيه الضربات إليها لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية والقضاء على مركزها التجاري من ناحية أخرى [5]، وقد فشلت الحملة التي قادها أرناط أمير حصن الكرك، ونتج عن ذلك أن اهتم

(1) محمد المشري ، المرجع السابق، ص 188 – 189.

(2) المقريزي: الخطط، 1/ 201.

(3) شوقي عثمان، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، ص 83 – 84.

(4) محمد المشري، المرجع السابق، ص 189.

(5) شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 84.

بها سلاطين مصر، فأصبحت الميناء الرئيسي على البحر الأحمر[1]، وظلّت كذلك حتى أرسل السلطان برسباي حملة عن طريق البحر الأحمر لمهاجمتها وتخريبها وذلك لأن البدو هاجموا إحدى القوافل الخاصة بالسلطان، وتمكنت الحملة من أداء مهمتها حوالي عام 1428م وتبع ذلك انتقال التجارة إلى الطور[2]. وسواكن [3].

6- مرزق وزويلة:

من أهم المراكز التجارية التي أنشئت في الصحراء مدينة مرزق، والتي كان لها أهمية كبيرة في المبادلات التجارية مع بلاد البورنو وشعب الحوصا[4]، فضلاً عن علاقاتها مع طرابلس [5] وغدامس حيث كانت محطّة تجارية مهمّة تتجمع فيها القوافل التجارية من أنحاء المغرب، وتتّجه منها إلى كانم [6]. وبورنو وتنبكت[7].

ثم ظهرت زويلة كمركز تجاري منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وبدأت

(1) ابن الأثير: الكامل، 11/ 199.

(2) الطور: فرضه على البحر الأحمر على ساحل خليج السويس على مقربة من جبل الطور، وهو ميناء كثير المراسي، وقد كان مرسى للسفن المحمّلة بسلع آسيا وأفريقيا، بل محطّاً نهائياً لها حيث تفرغ فيها أحمالها، شوقي عثمان، المرجع السابق، ص 82.

(3) سواكن: هي قاعدة بلاد البجة وهي جزيرة على طرف بحر القلزم من الجهة الغربية، قريبة من البر ويسكنها التجار، ووواليها من العرب ويعرف بالحدربي، وقد أرسل الظاهر بيبرس حملة لسواكن عام 1265م أدّت إلى استقرار حامية دائمة وأصبحت سواكن منذ ذلك الوقت تحت سيطرة المماليك، المرجع نفسه، ص 84.

(4) الحوصا: شعب ينتشر في شمال نيجيريا، تأثر بمؤثرات زنجية، وهم لا يمثلون جنساً بذاته، وإنما يطلق على جميع الشعوب التي تتكلم بهذه اللغة، وكانت قبائل الحوصا تدين بالوثنية قبل أن تتحوّل إلى الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 116.

(5) طرابلس: مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط عامر أهلة، افتتحها عمرو بن العاص سنة 24هـ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، علي ألطيف، المرجع السابق، ص 39.

(6) كانم: وردت في بعض المصادر العربية باسم مدينة تقع في الساحل الشرقي الشمالي لبحيرة تشاد، وهي الأساس لقيام أمبراطورية الكانم، المرجع نفسه، ص 55.

(7) الطيبي، أمين توفيق: كانم – بورنو بالسودان الأوسط «صلات تاريخية وتجارية عريقة بالشمال الأفريقي»، مجلة البحوث التاريخية، العدد 2، مركز جهاد الليبيين (طرابلس، 1408هـ/ 1987م) ص 71.

تأخذ مكان الصدارة حتى أصبحت عاصمة إقليم فزان[1]، وكانت مركزاً تجارياً مهماً للبضائع القادمة من كانم وكوار [2]، فضلاً عن القوافل التجارية التي كانت تصل إليها من طرابلس وجادو وإجدابيا وأوجلة ومرزق في ليبيا، ومن (دارفور وسنار) من السودان وقد أكسب زويلة هذه المكانة المرموقة موقعها، حيث تقع في بداية طريق كوار الممتدة إلى السودان الغربي والأوسط [3].

لقد ربطت زويلة بين موانئ البحر المتوسط من ناحية والسودان الأوسط والغربي من ناحية أخرى، كما وقعت تحت السيطرة الكانمية ابتداء من القرن السابع الهجري، وفي نهاية القرن الثامن الهجري، أصبحت زويلة قاعدة إقليم فزان وأصبحت تحت حكم السودان [4].

7- مدينة أودغست:

أودغست مدينة من السودان الغربي، وكانت تعتبر حاضرة من حواضر غانه، قال البكري بأنها: «تقع بين الزنوج ومدينة سجلماسة، وتبعد عن القيروان بمائة وعشر مراحل»(5)، وقد شبّهها ابن حوقل بمكة فقال: «أودغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة بين جبلين ذوي شعاب»[6].

---

(1) فزان: منطقة كبيرة تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة، وكلّها مأهولة بأناس أغنياء بالمال وبحدائق النخيل، وهم واقعون فعلاً على تخوم أغادس، وصحراء ليبيا التي تتاخم مصر، الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص 146 ؛ كذلك، السعدي: تاريخ السودان، ص 89

(2) كوار: تقع الآن في الشمال الغربي لجمهورية تشاد، وكانت من القرن السادس الهجري ضمن الأقاليم التابعة لإمبراطورية الكانم وهم من السودانيين المسلمين، وكانت من المحطّات التي ينعم فيها التجار القادمون من فزان بالراحة بعد عناء كبير في الصحراء وتتجهّز منها القوافل التجارية إلى بلاد الكانم ثم إلى ممالك الهوسا، الإدريسي: نزهة المشتاق، 2/ 117.

(3) السعدي: تاريخ السودان، ص 91.

(4) علي ألطيف، المرجع السابق، ص 46.

(5) البكري: المسالك والممالك، 2/ 851.

(6) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 24.

فهي تبّعد 200 ميل عن عاصمة غانه (كومبى صالح)، وسكانها خليط من العرب والمغاربة المسلمين، وقبائل السوننكي وقبائل جدالة ومسوفة ولمتونة إحدى قبائل صنهاجة التي تتمتع بحق السلطة [1].

ولقد كانت (أودغست) أوّل مركز إسلامي يظهر في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، بل إنّها كانت حلقة الوصل بين العناصر العربية والبربرية وبين العناصر الزنجية، وهي البلد التي ساهمت بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الزنجية التي بدأت تدخل دين الله أفواجاً، وكان أحد ملوكها وهو الملك (اقيسيو كان) الأودغستي شديد التحمّس للإسلام ونشره بين قومه الزنوج، وإن كان هو في الأصل ينتمي إلى قبائل لمتونة المجاورة للمغرب من جهة الجنوب [2].

وشهدت المدينة نهضة اقتصادية كبيرة وأرباب نعم كثيرة وأموالاً جليلة، وسوقها يؤمه التجار بكثرة حتى أن الرجل لا يسمع فيها جليسه، ويتبايعون بالذهب ولا توجد لديهم فضة[3].

لقد كانت الحركة التجارية في أودغست على درجة كبيرة من الازدهار مع الشمال الأفريقي، ومع المدن المجاورة لها، وكان ذهب أودغست من أرقى أنواع الذهب وأكثره جودة [4]، ومما يؤكد الحركة التجارية القائمة فيها ما ذكره ابن حوقل: «وملك أودغست هذا يخالط ملك غانا وغانا أيسر من على وجه الأرض... وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام إلاّ به، وربّما بلغ الحمل من الملح في دواخل السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار»[5].

إن أودغست عرفت حركة تجارية نشيطة ساعد في تكوينها تجار من الشمال الأفريقي

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 1/ 227.

(2) عبد الفتاح الغنيمي: حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا، ص 87، 137 – 138.

(3) البكري، المصدر السابق، 2/ 848.

(4) الهادي الدالي: مملكة مالي الإسلامية، دار الملتقى للطباعة والنشر (بيروت، بدون تاريخ) ص 53 – 54.

(5) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 98.

فجلبوا إليها القمح والتمر والزبيب، حتى وصل سعر قنطار القمح عندهم في أغلب الأوقات ستة مثاقيل وكذلك التمر والزبيب [1]، كما كانت البلد تتمتع بثروة حيوانية متمثلة في الغنم والبقر حيث تشتري عشرة أكباش بمثقال، كما يوجد عندهم الإبل وحيوان يستخدم جلده في صناعة الدروق التي تسمّى (اللمط) [2].

8- مدينة تنبكت:

مدينة تنبكت تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بالمنطقة المعروفة بمنحنى النيجر عند دوران قرصه الشمالي[3]، وتعتبر مدينة تنبكت حلقة وصل بين السودان الغربي والصحراء الكبرى، وهي قريبة من نهر النيجر، وأغلب الآراء تؤكّد أنها تأسست في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي [4].

ويبدو أن مؤسسيها من البربر الطوارق وخاصة طبقة النبلاء والأعيان والسادة من الطوارق، وكانوا ينزلون بها شهور الصيف وفي الخريف يرتحلون، وسمّيت تنبكت بهذا الأسم نسبة إلى اسم عجوز اسمها تنبكت كانت تسكن المكان قبل إنشاء المدينة وكان الرحّالة ينزلون حول بيتها فتساعدهم ويساعدونها وتحرس لهم بعض متاعهم، فلما أنشئت المدينة سميت باسم المرأة [5].

ومثلث التجارة المصدر الرئيسي في حياة سكانها، واهتموا بها اهتماماً شديداً، وتوافد عليها التجار من السودان الغربي ومن الشمال الأفريقي في حركة دءوبة يحملون معهم بضائعهم، ويعودون محمّلين بالذهب والرقيق، وناب الفيل وريش النعام، وقد بلغت تنبكت ذروة الازدهار الاقتصادي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، الذي عرف

(1) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 99.

(2) الهادي الدالي: مملكة مالي الإسلامية، ص 53.

(3) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 6/ 195.

(4) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 218 ؛ كذلك، الهادي الدالي: مملكة مالي الإسلامية، ص 91، وإصلاح حمودة: انتشار الإسلام والثقافة العربية، ص 27.

(5) السعدي، المصدر السابق، ص 20- 21.

بالعصر الذهبي لهذه المدينة [1]، حيث بلغت القوافل القادمة إليها من الشمال الأفريقي في سنة 751هـ/ 1350م، اثني عشر ألف جمل [2].

وذكر ابن خلدون العلاقات التجارية في تنبكتو حيث قال: «وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقيا»[3].

إن مركز تنبكت التجاري كان واضحاً منذ نشأتها، إذ أنها تقع على ملتقى طرق القوافل البرّية عبر الصحراء، والقوافل النهرية التي تسير بنهر النيجر وأهم الطرق البرية التي كانت تتصل بتنبكت أربعة هي:

1- الطريق من مصر مَارّاً بكانم إلى تنبكت.
2- الطريق من تونس مارّاً بُهجار إلى تنبكت.
3- الطريق من المغرب الأقصى مارّاً بسجلماسة [4]، وتوات [5] إلى تنبكت.
4- الطريق من تغازة [6] مارّاً بولاته [7] إلى تنبكت [8].

انتشرت شهرة تنبكت التجارية في القرن الثاني عشر الميلادي، وخاصة كمركز لتجارة الذهب والملح، بعد أن تحوّل لها النشاط التجاري الذي كان الملح يوجد بها على ألواح

(1) الهادي الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا ما وراء الصحراء، ص 307 – 308.

(2) قداح، نعيم: أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، 1974م) ط2، ص 55.

(3) ابن خلدون: العبر، 6/ 200.

(4) سجلماسة: تقع في المنقطة الغربية من الصحراء الكبرى، في الحدود الجنوبية الشرقية للمملكة المغربية، الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي، ص 301.

(5) توات: تقع إلى الجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية وتبعد حوالي 1500كم عن عاصمة الجزائر، فرج، محمد فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر، 1398هـ/ 1977م) ص 1.

(6) تغازة: تقع في جنوب المغرب الأقصى بقرب المحيط الأطلسي على الطريق الرئيسي للقوافل بين المغرب وتنبكت، وأغلب سكانها من مسوفة وتعتبر المصدر الرئيسي لمعدن الملح، ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 674.

(7) ولاته: هي إحدى مدن جمهورية موريتانيا الحالية، سكانها خليط من الزنوج والعرب، هاجر إليها عدد من علماء تنبكت زمن الملك سني علي. الهادي الدالي: التاريخ السياسي، ص 305 – 306.

(8) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 197.

obeikandl.com

ضخمة، ولشدّة ضخامتها لم يكن الجمل يحمل منها إلا لوحين، وكانت البيوت والمساجد تبنى من هذه الألواح [1]، وفي ذلك يقول الوزان عن ملح تغازة: ... فيه عدد من مناجم الملح تشبه مقالع الرخام، يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح، وليسوا من سكان البلدة»[2].

ويصف الوزان تنبكت بوفرة خيراتها وبكثرة الحوانيت التي تبيع المنتوجات القطنية والأقمشة المجلوبة من الشمال الأفريقي وأوروبا [3]، ويصفها السعدي بأنها ملتقى التجار أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة من كل بلاد [4]، إن التجار في تنبكت احتفظوا بمكانة مرموقة وكبيرة والمثال على ذلك أن حاكم تنبكت من قبل إمبراطور سنغاي وهو(عمر بن محمد النَّدي)، زوّج ابنتيه من أخوين من تجار تنبكت لثرائهما الواسع، وكذلك مما زاد من اهتمام الأمراء بالتجار أن الملك أعلن عداءه لليهود، حتى إنه لم يقم في بلاده يهودي واحد، وإذا وصل إليه أن لأحد التجار علاقة مع يهودي صادر أمواله، وهذا الأمر ضاعف من الاعتماد على التجار المسلمين [5].

وقد اشتهرت هذه المدينة بصفة خاصة بأنها مركز الدين والتجارة ذلك لأن الحركة العلمية قد ازدهرت بها وخاصة في زمن السلطان منسى موسى حيث استقدم عدداً كبيراً من العلماء ولاسيما من المغرب ومصر والأندلس فامتلأت هذه المدينة بالعلماء، وكان ازدهار حركة التجارة بينها وبين الدول المجاورة من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية فيها، حتى ظهرت تنبكت في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين كأعظم مدينة حضارية وثقافية وعلمية في السودان الغربي، حيث انتشرت بها مدارس تحفيظ القرآن الكريم والكتاتيب واشتد الطلب على شراء الكتب وهي مخطوطة، إذ كانت تجارة رابحة وتدر أرباحاً طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل في أي تجارة أخرى، وهذا ما يدل على عِظم الإقبال والتلهّف على اقتناء الكتب، وعلى كثرة العلماء والمتعلمين، واشتهرت تنبكتو كذلك

(1) أحمد شلبي ، المرجع السابق، 6/ 197.

(2) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص 108 – 109.

(3) المصدر نفسه، ص 166.

(4) الهادي الدالي: التاريخ السياسي، ص 308.

(5) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 221.

بمسجدها سنكري[1] أو جامعة سنكري التي كانت ذات سمعة واسعة في العالم الأفريقي وبقية العالم الإسلامي [2].

كذلك كثرت المكتبات في تنبكت، وكانت مفتوحة لإطلاع الطلاّب والراغبين في العلم، واشتهرت عدد كبير من المكتبات المملوكة لعلمائها، ولكن عرف عن هؤلاء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم على الراغبين في الاستعارة مهما كانت الكتب قيّمة، وكانت تدور بها حركة نسخ نشيطة ليحصل عن طريقها بعض الناس على نُسخ من الكتب التي يريدونها [3].

لم تكن تنبكت مركزاً تجارياً وسوقاً هاماً فقط بل كانت مركزاً عظيماً من مراكز العلم والثقافة يقول السعدي في تنبكت: «... وما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قطّ لغير الرحمان، كانت مأوى العلماء والعابدين ومآلف الزاهدين والأولياء، وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صارت مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم ويأتيها الناس من كل جهة ومكان، وقد صارت سوقاً للتجارة»[4].

9- مدينة جني:

تقع هذه المدينة إلى الجنوب الغربي من تنبكت، وتبعد عنها حوالي ستمائة كيلو متر تقريباً، وكان تأسيسها حول سنة 494هـ/ 1100-1101م، وذلك على زمن دولة المرابطين، وهي مدينة محاطة بسور عظيم به ثماني بوابات، وكثيرة الأشجار، حتى إن الناظر إليها من بعيد يحسبها غابة من كثرة الأشجار فيها [5] حتى سمّاها بعضهم لؤلؤة النيجر[6].

وكان إسلام ملك جني (كمبروا) حوالي نهاية القرن السادس الهجري/ أي حوالي 1200م،

(1) مسجد سنكري: قامت ببنائه سيدة غلالية فاضلة كانت ذات ثروة وحسب ونسب، حيث جعل هذا المسجد من تمبكت عاصمةمن عواصم الدين والعلم والأدب في بلاد السودان، السعدي، المصدر السابق، ص61-62.

(2) عبد الفتاح الغنيمي: حركة المد الإسلامي، ص 139 – 140.

(3) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 233.

(4) السعدي، المصدر السابق، ص 20 – 21.

(5) المصدر نفسه، ص 21.

(6) بانيكار، ك، مادهو: الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقيا، ترجمة: أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، 1998م) ص 385.

وحذا حذوه رعيته [1]، ثم أصبحت ملتقىٰ للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، حتىٰ أصبحت مركزاً تجارياً مهماً، وهذا جعل التجار يحملون لها الإسلام مع ما حملوا من سلع، فأخذ الإسلام يدّب رويداً رويداً فيها، وأقام بها كثير من العلماء يعملون علىٰ نشر الإسلام وعند القرن السادس الهجري أحس ملكها الوثني كمبرو أن الإسلام يحيط به من كل جانب، وما يحمله هذا الدين من مبادئ راقية وفكر جليل، فعزم علىٰ اعتناقه، فحشد العلماء، وأسلم علىٰ أيديهم وطلب من رعيّته الذين لم يُسلموا بعد أن يدخلوا في الإسلام، ثم هدم قصره وبنىٰ به المسجد الجامع [2].

ويذكر السعدي أنه عند إسلام الملك علىٰ أيدي العلماء طلب منهم أن يدعو الله تعالىٰ بثلاث دعوات وهي: «كل من هرب إليها وطنه ضيّقاً عسراً أن يبدلها الله له سعة ويسراً، حتىٰ ينسىٰ وطنه، وأن يعمّرها الله بغير أهلها، وأن يسلب الصبر من وارديها من التجّار حتىٰ يملّوا فيبيعون ما معهم بناقص الثمن، فيربحو فيها، فقرأوا الفاتحة علىٰ هذه الدعوات»[3].

وقد حسن إسلام أهل جني حتىٰ إن ابن بطوطة يصف حماسة أهل جني من الزنوج في أداء عبادتهم وفي دراسة القرآن الكريم، ويصف يوم الجمعة بأنّه إذا لم يسرع الإنسان إلىٰ المسجد فإنه لن يجد أين يصلّي من كثرة الزحام [4].

وفي عهد (أسكيا محمد) تقدّمت جني تقدّماً كبيراً في المجال التجاري والثقافي، كذلك في عهد أسكيا اسحق كانت المدينة من أعظم مدن السودان، وأصبحت سوقاً عظيماً من أسواق المسلمين يلتقي فيها تجار الملح من تغازة وتجار الذهب وجمعوا أموالاً لا تحصىٰ [5]، وحظيت المدينة بأهمية اقتصادية كبيرة نظراً لموقعها كملتقىٰ للقوافل التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، وعمل الملك سني علىٰ رفع قيمتها التجارية ودعم الأمن بها [6].

(1) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 217.
(2) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 200.
(3) السعدي، المصدر السابق، ص 13.
(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 421 – 422.
(5) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 201 – 202.
(6) الهادي الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي، ص 305 – 306.

لقد اتسعت جني لكل الوافدين عليها من تجار وعلماء ومدرسين ودعاة، وظهر بها الكثير من العلماء والفقهاء، وأرسلت أبناءها من الطلاب إلى مختلف الجامعات الإسلامية في ذلك الوقت، لكي ينهلوا من الثقافة الإسلامية الزاهرة في بلاد العالم الإسلامي، وأنهم عند العودة إلى بلادهم فإنهم يساهمون مع أبنائها في رقي الحضارة الإسلامية وازدهارها، الأمر الذي زاد الحركة الفكرية في البلاد وعمل على اتساع مكانتها [1].

10- مدينة جاو:

تقع مدينة جاو إلى الشمال من العاصمة باماكو بجمهورية مالي، وكانت خاضعة لسيطرة مالي إبان عصور ازدهارها وتوسعها في منطقة السودان الغربي، وكان السلطان منسى موسى قد قام ببناء مسجد بها إثر عودته من أداء فريضة الحج عام 1325م، وأشرف على بناء هذا المسجد الكبير المهندس الشاعر القرطبي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي، وكان السلطان موسى تعرف على أبي إسحاق بمكة المكرمة خلال حجّه عام 1324م ودعاه إلى بلاده وصحبه معه عند عودته إلى مالي [2].

ثم أصبحت جاو العاصمة السياسية لإمبراطورية سنغاي، ومركزا من مراكز التجارة للسودان الغربي، حيث نمت سريعاً لوقوعها على نهاية الطريق الصحراوي عبر المنطقتين الشرقية والوسطى من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض نهر النيجر، ومكنّها موقعها على منحنى نهر النيجر نحو الجنوب بإشرافها على حركة الملاحة والتجارة على امتداد النهر نحو الجنوب والغرب، وتيسّرت اتصالاتها بهذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم، ونتج عن هذا النشاط التجاري توسع جاو وامتداد حدودها إلى المناطق المجاورة، فأخضعت ثمانية من ملوك السودان، وصارت مدينة جاو المدينة التجارية الأولى في وسط نهر النيجر [3].

(1) عبدالفتاح الغنيمي: حركة المد الإسلامي، ص 144.
(2) المرجع نفسه، ص 145.
(3) الهادي الدالي: التاريخ السياسي، ص 309 – 310.

11- مدينة ولاته:

تقع إلى الشمال الغربي من تنبكت، ومعناها الأرض المرتفعة وكان أهل صنغاي يسمونها (بيرو) وكان تأسيسها حوالي القرن الهجري الأول، ويذكرها ابن بطوطة باسم (ايوالاتن)[1]، والسعدي ذكرها باسم (والاتا) [2].

بدأت ولاته تحتل مكانها كمركز تجاري على طريق الصحراء الجنوبي بعد سقوط مملكة غانه، وقيام مملكة مالي، التي ضمّتها إلى حدودها، حيث اتجهت إليها القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وأشار ابن بطوطة إلى اهتمام أهل ولاته بالتجار وخروجهم إليهم بالماء والمؤن، وسكانها خليط من الزنوج والعرب، وقد هاجر إليها عدد من علماء تنبكت زمن الملك سنى علي وارتبطت بعلاقات تجارية مع تنبكت وباقي المراكز الأخرى[3].

وأهلها كما ذكر ابن بطوطة محافظون على الصلوات، وعلى تعلّم الفقه، وحفظ القرآن الكريم، كما كثرت بها حلقات العلم والدروس [4].

12- مدينة تكدا:

تقع في شمال النيجر حالياً وهي من أهم المراكز الواقعة خلف الصحراء في الطريق الشرقي لبلاد الهوسا [5]، فهذه المدينة كانت ملتقى لطرق القوافل القادمة من السودان الغربي نحو فزّان، والقوافل التجارية الواصلة من السودان الأوسط إلى توات [6]، وعبر هذه المدينة

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 247.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص 7.

(3) الهادي الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي، ص 306.

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 233.

(5) بلاد الهوسا: لدى الكتاب السودانيين فهذه البلاد تمثل أواسط بلاد السودان وتضم سبعة أقاليم، علي ألطيف، المرجع السابق، ص 57.

(6) توات: تقع إلى الجنوب الغربي من صحراء الجزائر، وهي من المراكز التجارية المهمة، بسبب موقعها كواحة في وسط الصحراء مما جعلها حلقة وصل بين شمال أفريقيا والسودان الغربي، فعملت على تزويد التجار بما يلزمهم من غذاء وماء. طرخان، إبراهيم: إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة، 1395هـ/ 1975م) ص 239.

يستطيع المسافر أن يذهب في كافّة الاتجاهات، ويؤكد ابن بطوطة أهمية هذه المدينة التجارية حيث رافق قافلة تجارية في رحلتها لبلاد السودان، يقودها تجار غدامس [1]، فقال: «ولا شغل لأهل تكدّ غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون ما بها من حسان الثياب وسواها، ولأهلها رفاهية وسعة حال»[2].

وتوجد مناجم النحاس في تكدا يقول بن بطوطة: «النحاس خارج تكدّه يحفرون عليه ويسبكونه في المدينة في دورهم، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، ويسبكونه نحاساً أحمر، ويصنعون منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها غلاظ وبعضها رقاق، وسعر الغلاظ 400 قضيب بمثقال ذهب، والرقاق من 600 إلى 700 قضيب بمثقال ذهب»[3].

لقد كانت تكدا سوقاً تجارياً مهماً وصل أهلها إلى درجة كبيرة من الثراء بسبب الاشتغال بالتعدين وقد ذكر العمري أن أهل تكدا يبيعون النحاس الأحمر إلى بلاد السودان الكفار وزن مثقال بثلثي وزنه ذهب [4]، كذلك اشتغالهم بالملح وخدمة القوافل، فأصبحت مركزاً رئيسياً لتجارة القوافل، وقد عبّر السلطان منسى موسى في مصر عند رحلته إلى الحج، بأن هذه المناهج هي أهم منابع ثروته، وكشف العالم الأثري الفرنسي (موني) بقايا هذه المناجم حديثاً في مدينة أزليك بالقرب من موضع تكدّا عام 1959م [5].

13- مدينة أقدز (أغاديس):

تقع في الشمال الشرقي من نيامي عاصمة جمهورية النيجر، حيث تبعد عنها حوالي ألف كيلو متر[6]، أسّس هذا المركز التجاري محمد بن أحمد بن عمر من الطوارق سنة 564هـ/ 1168م[7]،

(1) علي الطيف، المرجع السابق، ص 50 – 51.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 305.

(3) المصدر نفسه، ص 439 – 441.

(4) العمري، المصدر السابق، 4/ 507.

(5) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة، 1393هـ/ 1973م) ص 137 – 138.

(6) الهادي الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي، ص 311.

(7) علي الطيف: المراكز التجارية الليبية، ص 51.

وأشار إليها الوزان تحت اسم مملكة أغادس، وأفاد أن أغلب سكانها من العرب والمغاربة الذين اشتغلوا بالتجارة، ويعتمد دخلها على الضرائب التي تؤخذ من التجار الوافدين عليها [1]، كما أشار إلى أن اغلب سكانها من الأجانب ويشتغلون بحرفة التجارة باستثناء أهالي البلاد الأصليين الذين يمتهنون حرفة الصناعة والباقي من السكان يشتغلون كجنود للأسرة الحاكمة[2]، وكانت القوافل تأتيها من فزان وغدامس وزويلة، واشتهرت بتجارة البخور والعلك والذهب [3].

14- مدينة زغاوة:

قال ابن خلدون: «زغاوة مسلمون ومن شعوبهم تاجرة ويليهم الكانم»[4] فهي بلاد واسعة، وسكانها قبيلة من السودان، وهم فرع من قبائل التيبو العربية وبعض الزنوج، وهي محاذية لبلاد النوبة [5].

ويبيّن الإدريسي أن زغاوة نسبة لقبيلة من السودان سكنت مدينة عرفت باسمها كانت قائمة قبل القرن السادس الهجري[6]، وقد كانت لزغاوة علاقات تجارية مع المراكز التجارية في المنطقة عبر القوافل التجارية إلى القرن الثالث عشر الهجري[7].

إن الصحراء الكبرى شهدت حركة تجارية مستمرّة، ربطت بين أجزائها الشمالية والجنوبية وازدادت هذه الحركة نشاطاً بوصول المسلمين إلى جنوب الصحراء، ولم تعد مهمة السير من الشمال إلى الجنوب تقتصر على نقل البضائع فقط بل أضاف التجار على كاهلهم مهمة الدعوة للإسلام [8]، وسأعرض في الصفحات التالية دور التجار في نشر وترسيخ العقيدة الإسلامية

(1) الهادي الدالي: المرجع السابق، ص 311.
(2) الوزان: وصف أفريقيا، ص 172.
(3) السعدي: تاريخ السودان، ص 120.
(4) ابن خلدون: العبر، 6/ 413.
(5) علي الطيف، المرجع السابق، ص 53.
(6) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 29 – 30.
(7) علي الطيف، المرجع السابق، ص 54.
(8) المرجع نفسه، ص 63.

في جنوب الصحراء الكبرى بعد أن ذكرنا أهم المراكز التجارية، ولأن المراكز التجارية في الصحراء الكبرى وجنوبها كثيرة ولكن حاولت الاقتصار على أشهرها وأهمها والتي كان لها شهرة تجارية كبيرة في العصور الوسطى والتي أصبحت بفضل هؤلاء التجار منارات علمية إسلامية أضحت وجهة للعلماء والفقهاء والدعاة والتجار من كل صوب.

خامساً: دور التجار المسلمين في نشر الإسلام جنوب الصحراء:

أقام العرب قبل الإسلام علاقات تجارية مع سكان جنوب الصحراء الكبرى وكانت بعض القبائل تقوم بهذه التجارة، وتطورت التجارة حتى أصبحت هناك حملات تجارية كبيرة ومنظمة، وفي نشاط متزايد بين أطراف القارة شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، وقد ألفت مناطق جنوب الصحراء هؤلاء التجار قبل دخول الإسلام إليها [1]، وكان هؤلاء التجار قبل الإسلام يجسّدون حياة الجاهلية الأولى بكل أشكالها، وقد أثّر ذلك إلى حد كبير في طرق تعاملهم مع الأفارقة، ذلك التعامل الذي كان مبنيّاً على الكبرياء والغطرسة والتكبّر، فقد كانوا يتعاملون بالرباء وأكل الأموال بالباطل وعدم الاهتمام بمصدرها أيّاً كان، كما كان منهم من يعيش حياة الفسق والفجور، ومنهم من يقوم بإجبار الأفارقة على القيام بأعمال السخرة، ويعتبرونهم سلعة رائجة قام عليها ركنٌ مهمٌّ من أركان حياتهم الاقتصادية، التي تمثلت في تجارة الرقيق [2].

وعندما جاء الإسلام ودخل هؤلاء التجار في الإسلام صقلهم بمبادئه السمحة وسيّرهم وفق قواعد هذا الدين فأصبح التاجر في ظل الإسلام يتّخذ من الشرف والثقة والأمانة دعامة لتجارته، ولاغرو فالتاجر المسلم لا يستطيع أن ينسى وهو يعامل الآخرين (3)، قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) ﴾ [4].

(1) عطية الفيتوري: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص 100 – 101.

(2) المرجع نفسه، ص 101.

(3) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 204 – 205.

(4) سورة المطففين: الآيات (1 – 5).

وأصبح تعامل التاجر المسلم على أسس القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاتُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (7) ﴾ [1].

فالتاجر المسلم إذا دخل قرية وثنية فسرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه الذي هو مظهر النظافة المحببة إلى النفوس البشرية، هذا بالإضافة إلى انتظامه في أوقات الصلاة والعبادة التي يؤدّيها بنظام ثابت، وفي خشوع كأنه يخاطب كائناً خفيّاً، ومنظره في سجوده وسكينته يضفي عليه من المهابة والجلال ما يحرّك فطرة الأفريقي الوثني، فضلاً عما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ومكارم الأخلاق، ونظافة البدن [2].

إن مزاولة التجّار لفروض الإسلام من صلاة وصوم وصدقة أدّت إلى إثارة انتباه الأفريقيين [3]، فنظافتهم وأمانتهم وصلاتهم ومظهرهم الجميل وملابسهم البيضاء، كانت تجذب الأفارقة وتؤثر فيهم [4]، فكان من شأن كل ذلك أن يوثق العلاقات بين تجّار المسلمين وبين المتعاملين معهم ويخلق لوناً من الجاذبية والتقدير ويتم في هذا الجو تبادل السلع والأفكار [5].

فسلوك التجار وسمو أخلاقهم وبعدهم عن شرب الخمر وعدم إتيان المنكرات والمعاصي والسيئ من القول والفعل طاعة لقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (92) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُّوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهّ وَعَنِ الصَّلَوَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(93) ﴾ [6] كل هذه الصفات الحميدة استمالت القلوب إليهم، وفرضوا من خلالها احترامهم وثقة الأهالي بهم، الذين ألفوا منهم حياة الغطرسة والتكبّر

(1) سورة الرحمن: الآية (7).

(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 391.

(3) احمد الأحمر: أفريقيا والعرب، ص 173.

(4) رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام في شرق أفريقيا، ص 35.

(5) كيتا، سليمان الأمين: الإسلام والمسلمون في غامبيا من 1000–1926م، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بجامعة الفاتح، (طرابلس، 1996م) ص 29.

(6) سورة المائدة: الآيات (92 – 93).

واللامبالاة، فأدركوا أن هناك قوّة إلهية أقوىٰ من البشر، وهذا ما دفعهم إلىٰ التفكير في هذه القوّة في الوقت الذي كان هؤلاء التجار يبدون لهم استعدادهم ورغبتهم في إمدادهم بمزايا هذا الدين، كما شاهدوا هذه الفئة وهي تقوم بأعمال خيّرة من إخراج الصدقات والزكاة وتوزيعها علىٰ المحتاجين وهذه الأعمال التي حلّت محل تعاملهم بالربا وعدم إيفاء الكيل والميزان [1].

فحرفة التجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة مباشرة بالمجتمع[2]، فاحتكاكهم المباشر بالسكان يجعلهم يؤثرون فيهم، وكان سكان المناطق التي يحلّون بها يقتدون بهم في معاملاتهم وتصرّفاتهم وسلوكهم اليومي في الحياة، فيرونهم يتوضؤون ويقيمون الصلاة في جماعات، ويرونهم يحيون ليالي رمضان بالصلاة وقراءة القرآن، أو إذا هلّ عيد الفطر احتفلوا به وخرجوا لصلاته بملابسهم الجديدة، وإذا أدركهم عيد النحر عظموا ضحاياهم ثم فرّقوا لحومها علىٰ الفقراء، وتزاوروا فيما بينهم، يرونهم في تسامحهم ودفعهم بالقول الليّن والحسنىٰ وتأليفهم القلوب ومداواة المريض وإغاثة الملهوف والتواد والتراحم فيما بينهم، مما كان يدفع هؤلاء الوثنيين إلىٰ ترك دين آبائهم والدخول في الدين الجديد [3].

والتجار المسلمون كانوا يتركون زوجاتهم في أوطانهم، فبذلك يعسر عليهم أن يعيشوا عدّة شهور دون زوجات، ومن هنا يتخذون لهم زوجات في المكان الذي يتهجّر فيه ويصبح بيته مركزاً إسلامياً يلعب دوراً كبيراً في خدمة الإسلام [4].

ونتج عن هذا الارتباط استقرار التجار المسلمين في المدن الأفريقية وتكوين أحياء خاصة بهم، أقاموا فيها مساجد ومدارس لتعليم القرآن الكريم وأضحىٰ التجار يقومون بمهمة الدعوة إلىٰ جانب نشاطهم التجاري، فترأسوا حلقات الدرس والتعليم [5]، وكان القليل منهم من يجيد الفقه والفكر الإسلامي وليس منهم من يستطيع التفرّغ لذلك، فنجد

(1) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص 391.

(2) حسن حسن: انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 73.

(3) محمد أحمد: المسلمون في غينيا، ص 27.

(4) أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 6/ 205.

(5) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 214.

الكثيرين منهم يستقدمون الفقهاء والعلماء لهذه المناطق عندما يكثر عدد المسلمين بها فيتولى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم، وشرح حضارته لهم [1]، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس والزوايا والخلاوي لتعليم أطفال الزنوج ونشر الإسلام بينهم كما كانوا يرسلون أفذاذ الطلاب من الوطنيين إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في القاهرة ودمشق وبغداد وفاس والقيروان ليتلقوا المزيد من العلم والدين، وعندما كثر إقبال الأفريقيين على السفر للتعلّم في المعاهد العلمية الشهيرة، قام كثير من التجّار ببناء البيوت لهم بالشمال يعيشون بها طيلة التحاقهم بهذه المعاهد، كما قدّم هؤلاء التجار ما احتاجه هؤلاء الطلاب من نفقات ومصروفات [2].

لقد كان بعض التجّار يجمع بين التجارة والتعليم بأنفسهم، فيحوّل الواحد منهم دكانه في الليل إلى مكتب لتعليم الأطفال المسلمين والوثنيين، وكانوا يقدّمون أنفسهم لبلاط الملوك الوثنيين فيلاقون الترحاب، ويصبحون مستشارين لهم، مما كان يؤدي إلى إسلام الملوك وحاشيتهم، ومن ذلك أن الملك (أميتسا) ملك أوغنده منح التجار المسلمين حرّية الاستيطان في مملكته كعلماء وأساتذة للدّين، وبهذه الوسيلة أمكن للإسلام أن يصل إلى قلوب كثير من الأهالي [3].

وإذا كان لهؤلاء التجار دور هام في نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة، فإن انتشار الإسلام أدى بدوره إلى مضاعفة النشاط التجاري بين شمال أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى، وأصبح للتجارة مكانة خاصة [4]، ومما يدل على قوة الصلات التجارية بين الشمال والجنوب المثل السائد في شمال أفريقيا الذي يقول: «إن يجرب جملك فعليك بالقطران..... وإن تفتقر فسافر إلى السودان»[5].

وبهذا أصبح هؤلاء التجار يشكّلون طبقة متميزة في المجتمع، حتى إن بعض القبائل الأفريقية اتخذت من التجارة حرفة رئيسية عرفت بها، وكان في المدن التجارية الهامة أحياء خاصة للتجار المسلمين، فشيّدوا فيها دوراً خاصة لسكناهم تقع فوق مستودعات بضائعهم،

(1) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 206.

(2) رجب عبدالحليم: العروبة والإسلام، ص 36 ؛ كذلك أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 206.

(3) المرجع نفسه، ص 31 – 36.

(4) مطير غيث، المرجع السابق، ص 159.

(5) نعيم قداح: أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص 141.

وكان ذلك مدعاة للاختلاط والامتزاج والتبادل الثقافي والحضاري بين هؤلاء الوافدين وإخوانهم من مسلمي المنطقة [1].

يقول ابن حوقل: «عرف العرب التجارة مع أفريقيا منذ أمد بعيد، ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلماً زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط الذي كان يقوم به العرب فقد عنى المسلمون بالطرق والأمن، وحدّدوا المكاييل والموازين والمقاييس، وأشاع التاجر المسلم حوله جوّاً من الثقة، فوجد ترحاباً أينما حلّ، وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة واختار مساعديه بالجنوب من خيرة الناس، فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة»[2].

ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي اختفت إلى الأبد التجارة التي تعتمد على المقايضة والإشارة وأدخل الإسلام إلى تلك الأصقاع نظام الصكوك والمعاهدات والمكاتبات التجارية [3]، ومن هذه الوثائق والمكاتبات التي ربطت بين التجار المسلمين وتجار جنوب الصحراء ما أورده الهادي الدالي في كتابه التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا ما وراء الصحراء، وما أوردته إصلاح البخاري حمودة في كتابها انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا فيما وراء الصحراء، والتي نستدل منها على أنّها كتبت بصيغة إسلامية تدل على سماحة وشيم الإسلام والتي منها الأمانة التي هي قيمة عظيمة بين التجار مما جعلت الناس يقتدون بهم ويطمئنون إليهم ويثقون بهم، وسنورد بعض هذه الوثائق نقلاً عن هذين المؤلفين، ومن هذه الوثائق رسالة محمد بن علي من غدامس إلى تاجر في تنبكت جاء فيها: «الحمد لله وحده هذه أمانة سيدي الحاج محمد بن علي الغدامسي فيها خمسة وعشرون رطل مرجان الحر بميزان في لوح محفوظ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون حرّر في 7 شعبان سنة 1290هـ» [4].

ومنها رسالة أحمد البكاي إلى انجي غلام عيسى في تنبكت ورد فيها: «الحمد لله وحده

(1) مطير غيث، المرجع السابق، ص 159.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 99.

(3) نعيم قداح، المرجع السابق، ص 139.

(4) إصلاح حمودة، انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 135.

وصلى الله على من لا نبي بعده وليعلم من يقف عليه أن الغدامسية على حدّتهم لا يجمعهم من السودان أمر، ولا بينهم وبينهم إلا ما بين المسلم وأخيه المسلم لا غير وأن مانب كلامي السودان والغدامسية كل على حدته فالغدامسية طائفة والسودان أعني أهل تنبكت طائفة إلا أن أخي متيضا وأخي عيسى تلميذ وأبناي أنا منهما وهما مني لا يجمعهما مع غير إلا ما شاء كتبت ليوم الاثنين الثامن عشر من رمضان عام تسعة وسبعين ومائتين وألف»[1].

وهذه رسالة أخرى من محمد بن عب إلى بكار بن حيد بخصوص تجارة بينهما في مدينة أقدز تقول: «الحمد لله وحده ولا يدوم إلاّ ملكه وصلى الله على من نبي بعده، من عند البركة المكرم الأكرم محمد بن عب إلى البركة المكرّم الأكرم بكار بن حيد، ألف ألف سلام عليك ورحمة الله وبركاته، ومثل ذلك على من نحب ويحبك، وبعد أن سألت عن أهلك وأبنائك فهم سالمون والحمد لله، والأهل حكمهم والعلماء والإماء، فهم سالمون والحمد لله كما تحب وترضى، بعد أن سئلت عن خبر الساحل قدم منها الجكاني، وقال: بأن العلك بثلاثين مثقالاً... ومن وقت قدم الجاكاني أغلا العلك وروده بعشرة آلاف وخمسمائة للحمل... وأن سألت عن الخديم العالي إلى مائة مثقال أو أكثر وتباع الريش بثمانية مثاقيل للرطل، وإن سألت عن خبر الملح في تنبكت بثلاثة مثاقيل ونصف للحمل... كاتب الحروف ومسلماً علي بكار كثير السلام كذلك محمد الأمين»[2].

كذلك هذه الرسالة إلى القاضي أحمد بابا بشأن تركه أحد التجار جاء فيها: «الحمد لله وحده لا يدوم إلا ملكه أما بعد فليعلم الموافق على هذا المسطور أن ميلاد بن جمع توفّي رحمة الله عليه وعفى عنه يوم الأربعاء العشرة أيام من ربيع النبوي الأول عام ألف وثلاثة وعشرون من الهجرة بالعيسوى وثبت عن قاض تنبكت حرسها الله الفقيه القاضي سيدي أحمد بابا بن سيدي أبي العباس أن جميع ما خلف الهالك المذكور من المال شركة بينه وبين أخيه حمد بن جمع وأن ميلاد المرحوم خلف عشرة أولاد... وزوجتين فاطمة ومريم، فمتى حصلت القسمة يكون لأخ الهالك نصف المال نصيباً له من التركة بعد خروج المتعلق بالمال من دين وغيره

(1) إصلاح حمودة، المرجع السابق، ص 137 – 138.

(2) الهادي الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي، ص 311 – 312.

وللزوجين المذكورين، ثم ما بقىٰ بعد خروج نصيب الشريك وما بقىٰ بعد خروج ثمن الزوجين يكون بين أولاد الهالك العشرة للذكر مثل الانثيين»[1].

وفي رسالة أخرىٰ من الحاج محمد عموش البلبالي إلىٰ عيسىٰ بن جم تقول: «الحمد لله وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، من علي بن الحاج محمد البلبالي إلىٰ أخينا عيسىٰ ابن عمنا أحمدي الشعواني وأبنائه وجميع العيال كثير ألف السلام وموجبه إليك ترىٰ محمد ولونىٰ عامر حملين ملح مصوّر عليه قارب وعراها سير لنا، وجميع الذي أتاك عراه سير لنا والسلام بتاريخ أربعة عشر في تاع العشور عام اثنين وثمانين بعد مائتين وألف والسلام علىٰ أخينا متيضا»[2].

هذه بعض الرسائل من عشرات الرسائل التي أوردتها الباحثة إصلاح حمودة والتي تحصلت عليها من مركز أحمد بابا التمبكتي بمالي، وتبيّن هذه الرسائل أن الديباجة التي كتبت بها ديباجة إسلامية حيث احتوت أغلبها علىٰ أمور دينية وتجارية ونصح وإرشاد، وتبيّنت نظام التعامل بين التجار من بيع البضائع وتحديد أسعارها ومن أمانة بين التجار، وسيرهم في تجارتهم علىٰ هدىٰ الإسلام وتمسك التجار بدينهم مما حبّب الأهالي فيهم واقتدوا بهم في تجارتهم وأفعالهم[3].

وهكذا لعب التجار المسلمون دوراً واسعاً في خدمة الإسلام ونشره دوراً عاد علىٰ الإسلام بالخير، وعاد علىٰ التجار بالنماء والبركة، فنمت تجارتهم وازدهرت في ظل الإسلام، وتضاعفت أرباحهم في كنفه[4]. ونتيجة لهذا النشاط التجاري الواسع الذي ساد شمال أفريقيا ووسطها وشرقها وغربها وما نتج عنه من انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية، نشطت أيضاً قوافل الحجيج التي كانت في الوقت نفسه قوافل للتجارة التي كان يمارسها الحجاج علىٰ طول طريقهم إلىٰ الأراضي المقدّسة، وفي الأماكن المقدسة يلتقي الأفارقة الشعوب الإسلامية

(1) إصلاح حمودة، المرجع السابق، ص 143.

(2) المرجع نفسه، ص 149.

(3) المرجع نفسه، ص 156 – 157.

(4) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 206.

المختلفة، ويشعرون بروح الأخوّة الإسلامية التي فرضها الإسلام، فيعود هؤلاء الأفارقة إلى بلادهم ممتلئين بالحماسة لنشر هذا الدين، كذلك يعودون محمّلين بالكتب الدينيّة التي تزيد من علمهم وثقافتهم كما كان له أثر في نشر الإسلام، وكان المسلمون الأفارقة يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لإخوانهم وأقربائهم الذين أدّوا هذه الفريضة، فيقدمون هم الآخرون عليها، ولذلك تعدّدت قوافل الحج التي كانت تخرج من هذه البلدان الأفريقية، والتي كانت تضم الآفاً على رأسها الملوك والحكام في أحيان كثيرة [1].

ولعل من أشهر الملوك الذين أدّوا فريضة الحج هو(منسى موسيا)[2] سلطان مالي الإسلامية الذي قام برحلته الشهيرة إلى الحج[3] على راس موكب كبير في عام 723هـ / 1323م، وجذبت تلك الرحلة أنظار العالم الإسلامي إلى مالي وبدأت تظهر على الخرائط التي رسمها الرّحالة في ذلك الوقت، وعند عودته من الحج جلب معه التجار والعلماء والفقهاء إلى دولته وبدأت تفد عليه أعداد وفيرة من مختلف الأقطار [4]، ومن الذين جلبهم منسى موسى معه أبو إسحاق الساحلي وهو مهندس وشاعر أندلسي وهو أول من أدخل إلى مالي نظام البناء بالطوب المحروق، وكذلك نظام السقوف المسطّحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل، وأشرف على بناء مساجد غاو وتنبكت [5].

وكذلك قام ملوك السنغي التي خلفت مالي بأداء فريضة الحج ومن أشهرهم (أسكيا الحاج محمد الأوّل) الذي قام بأداء فريضة الحج سنة (902هـ/ 1496م) [6].

(1) رجب عبدالحليم: المسلمون في أفريقيا جنوب الصحراء، ص 12 – 13.

(2) هو موسى بن أبي بكر بن سالم التكروري، ويلقب بالأشراف أما كلمة منسا فمعناها في لغتهم الملك أو السلطان، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 5/ 293.

(3) للمزيد من التفاصيل عن رحلة منسى موسى إلى الحج راجع، أحمد، محمد عبدالعال: منسا مُوسى سلطان التكرور ورحلة حجة الشهيرة (القاهرة، 1408هـ/ 1987م).

(4) أحمد الفيتوري: الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان، ص 248.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681.

(6) علي، فاي منصور: أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغهاي الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 1418هـ/ 1997م) ص 68.

وأدّى كذلك بعض سلاطين الكانم والبرنو، الذين كانت دولتهم تقوم حول بحيرة تشاد فريضة الحج، حيث قام الحكّام على تيسير أداء هذه الفريضة، وأوّل من حج من مايات برنو المسلمين (الماي أوم) حوالي 1097م وقد مات في مصر ودفن بها، في زمن الخليفة الفاطمي المستعلي أحمد (488 – 495هـ/ 1095–1101م) وحج (الهادي دونمة بن أوم) أكثر من مرة وبهرت مراكب حجه أهل مصر، وقد غرق عند عيذاب أو السويس وهو في طريقه إلى مكة في حجته الثالثة أو الرابعة حوالي عام 1151م وكان ذلك في زمن الخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله أبي منصور (511–549هـ/ 1149–1154م) [1].

وحرص جميع المسلمين في أهل برنو على أداء الحج وكثرت وفودهم إلى مصر في طريقهم إلى الحج، وبنوا مدرسة في فسطاط مصر عرفت باسم مدرسة ابن رشيق، لتدريس المذهب المالكي وبنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم [2].

وقد ذكر المقريزي هذه المدرسة بقوله: «مدرسة ابن رشيق بخط حمام الريش من مدينة مصر، كان الكانم من طوائف التكرور، لما دخلوا من مصر في سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج، ودفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالاً، بناها به ودرّس بها فعرفت به وصارت لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة، فكانوا يبعنون إليها في غالب السنين بالمال»[3].

وكان بناء هذه المدرسة في أواخر العهد الأيوبي، في زمن الملك البرنوي دونمة مالا (م:سنة حوالي 1259م)، وأقام حجاج البرنو كذلك فنادق لنزول حجاجهم ومن السلاطين الذين اشتهروا بهذا العمل إدريس ألوما (م: سنة 1602م) كما اشتهر بالإكثار من بناء المساجد، والغالب في إمبراطورية البرنو هو المذهب المالكي، والقلة على مذهب الإمام الشافعي [4].

وكان حكام بلاد السودان النيلي والصومال والحبشة يؤدّون هذه الفريضة وكانوا

(1) إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 72.

(2) المرجع نفسه، ص 72 – 73.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، 2/ 365.

(4) إبراهيم طرخان، المرجع السابق ، ص 73 – 74.

يحرصون على ذكر لقب الحاج قبل أسمائهم مثلما كان يفعل إخوانهم في شمال أفريقيا وغربها، وكانوا يعودون من هذه الرحلة المباركة ممتلئين حماسة لنشر الإسلام، بين من لم يعتنقه من الوثنيين في بلادهم وقراهم [1].

ومما يذكر أن حركة التجارة ودورها في نشر الإسلام في شرق أفريقيا ورغم طول فترة الوجود العربي في شرق أفريقيا ورغم الوحدة السياسية بين عمان وشرق أفريقيا لم تكن بنفس العمق الذي كانت عليه في غرب أفريقيا، وذلك لأسباب منها أن السلاطين العرب كانوا تجاراً اهتمّوا بالتجارة وجمع المال، كما لم يشهد شرق أفريقيا حركات إصلاحية كما حدث في غرب أفريقيا، لأن الحكم الإسلامي في شرق أفريقيا اتسم بالتسامح الديني والتراخي في بذل الجهود لنشر الإسلام ورغم ذلك فإن الإسلام هو الدين السائد في شرق أفريقيا، فدور التجارة في نشر الإسلام كان أكثر فاعلية في غرب أفريقيا ووسطها أكثر منه في شرقها [2].

(1) رجب عبد الحليم: المسلمون في أفريقيا جنوب الصحراء، ص 13.

(2) محمد عريبي: مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، ص 70.

obeikandl.com